

شمالى أفريقية ووندال

٤٣٩ — ٥٣٤ م

١ — التحديد الجغرافى لشمالى أفريقية وبلاد المغرب — السكان الأصليون : البربر وأصولهم — فلسطين هى دار البربر الأصلية — المؤرخون المسلمون وأقسام البربر — الاستعمار الفينيقي لشمالى أفريقية — الاستعمار الرومانى — التقسيم الإدارى لشمالى أفريقية الرومانى — أهمية ولاية أفريقية Africa — أثر الحضارة الفينيقية — موقف الرومان من البربر الوطنيين والممالك البربرية الوطنية — الأفارقة — انتشار الحضارة الرومانية — بعض قادة الفكر فى أفريقية الرومانية — سوء الأحوال الاقتصادية — الانقسام الدينى : (الدوناتيون Donatists) .

٢ — ووندال الجرمان وأصولهم وأقسامهم — تحركاتهم خلال القرنين الثانى والثالث الميلاديين — اعتراف الرومان بهم « Foederati » دخولهم غالة (٤٠٦) — دخولهم أسبانيا (٤٠٩) — اضطراب أحوال الامبراطورية الرومانية فى الغرب — مدى مسئولية بونيفاس Bonifacius فى دعوة ووندال لغزو أفريقية (٤٢٨) — شخصية ملك ووندال جزريك Gaisricus : « بسمارك القرن الخامس الميلادى » .

٣ — عبور ووندال إلى أفريقية (٤٢٩) وقضاؤهم على السيطرة الرومانية — كفاح بونيفاس الأخير ضد ووندال — الاعتراف بالوندال فى أفريقية فى معاهدة ٤٣٥ م — الاستيلاء على قرطاجنة (٤٣٩) واتخاذها عاصمة لمملكة ووندال . سيطرة ووندال البحرية ، رسالة أيودكسيا Eudoxia وتخریب ووندال لمدينة روما (٤٥٥) .

٤ — حكومة الوندال في شمالي أفريقيا — نظم الحكم والإدارة ،
التوزيع الأقطاعي Sortes Vandalorum واسترقاق الرعايا . سياسة الوندال
الدينية .

٥ — كفاح الرومان ضد دولة الوندال — تحالف الشرق والغرب ضد
الوندال — نهاية الأمبراطورية الرومانية في الغرب (٤٧٦) — وفاة جزريك
(٤٧٧) واضطراب أحوال مملكة الوندال من بعده — يوستانيوس والقضاء
على دولة الوندال ٥٣٣ / ٥٣٤ م — أسباب سقوط الوندال — تراهم —
الوندال والتاريخ — أحوال شمالي أفريقيا منذ زوال الوندال حتى بداية
الفتح العربي الإسلامي .

لم يكن هناك اسم معين يطلق ، في التاريخ القديم ، على المساحة الشاسعة
الواقعة في شمالي أفريقيا الغربي ، وهي الممتدة من غربي مصر شرقاً إلى المحيط
الأطلسي غرباً ، ومن البحر الأبيض شمالاً إلى الصحراء الكبرى من ناحية
الجنوب ، غير أن كتاب الغرب أطلقوا على هذه المنطقة اسم « بلاد البربر »
Barbary أو La Berbérie أو The Coast of Barbary^(١) ،
على حين أطلق الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على هذه المنطقة اسم
« بلاد المغرب » أو « جزيرة الغرب » أو « مغرب »^(٢) ، ويعنون بذلك

(١) Thomson, J. O., History of Ancient Geography, (Camgr, 1948), 1. 259;
Gsell, S., Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, (Paris, 1921), T.I., PP.1,2.

(٢) البلاذري : فتح البلدان ص ٢٧٠ ، تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٥٤ ، المسعودي :
مروج الذهب ج ١ ص ٥٥ ، ابن الوردي (نشره وترجمه إلى اللاتينية S. Hylander)
لندن (١٨٢٣) ص ٥٥ ؛ Gsell. op. cit. 66. 1- 23.

جميع شمالي أفريقيا غربى مصر ، بل أن كلمة « المغرب » ، عند العرب كانت تضم الأندلس كذلك ، فى أول الأمر ، إلا أنه بعد أن استقر المسلمون بالقيروان (٦٧٠ م) ، أطلقوا اسم « أفريقية » على المنطقة التى تضم غربى طرابلس وتونس (١) ، وصارت كلمة المغرب لا تدل على غير شمالي أفريقية الغربى فى نهاية الأمر (٢) ؛ على أن المغرب فى عرف أهله هو الممتد من غربى برقة ، أى أن برقة خارجة عنه ، إلى المحيط الأطلسى ، بمعنى أنه يشمل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش (٣) . والذى نعنيه فى هذا البحث « بشمالي أفريقية » هو المنطقة الممتدة من طرابلس شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً ، وهى التى طوتها السيادة الوندالية ، وقامت فيها مملكة الوندال ، وإن لم تكن سيادة الوندال فعالة على بعض أجزاء هذه المنطقة ، ولاسيما المغرب الأقصى . وهذه المنطقة هى بعض أملاك الرومان فى شمالي أفريقية (٤) . إذ كان الرومان قد بسطوا سيادتهم على جميع الساحل الأفريقى الشمالى المطل على البحر الأبيض ؛ بمعنى آخر إن المنطقة التى نعنيها ، تشمل ما هو ، حالياً ، بعض المملكة الليبية المتحدة وجمهوريتى تونس والجزائر والأطراف الشرقية للمملكة المغربية ؛ وهذه المنطقة هى بعض بلاد البربر ، كما ذكر القدماء ، وهى أيضاً « أفريقية الصغرى » Africa Minor ، كما عرفها ريتز

(١) من المعروف أن العينقيين قديماً كانوا أطلقوا اسم أفري Aphri على أهل البلاد الذين أقاموا حول مدينتهم طاقه Utica - أى المدينة القديمة - وحول عاصمتهم قرطاجنة - أى المدينة الجديدة ، وقد أخذ اليونان عنهم هذه التسمية ، وأطلق الرومان كلمة « أفريقية » على ولاية أفريقية القنصلية وتشمل قرطاجنة وما حوطها حتى نوميديا (أنظر الدكتور حسين مؤنس : فتح المغرب للمغرب - مصر ١٩٤٧ - ص ١ - ٢ .

(٢) لوبيون (ج .) : حضارة العرب - ترجمة زعيتير - ص ٢٤٣ .

(٣) الناصرى (أبو العباس) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - (تحقيق ونشر ولدى المؤلف جعفر الناصرى ومحمد الناصرى - الدار البيضاء ١٩٥٤) - ص ٦٣ - ٦٤ ابن خلدون : تاريخه - ص ١٠١ - ١٠٣ .

(٤) أنظر الخريطة رقم - ١ -

K. Ritter ؛ والمغرب عامة من الناحية الجيولوجية والجغرافية ، يكون وحدة . وكان أغزر إمطاراً وأكثر خصوبة مما هو عليه الآن ، ولا سيما فيما هو تونس الحالية (١) ، ويشبه سواحل جنوبي أوروبا ، وهو حلقة اتصال بين قارتي أفريقية وأوروبا ، وكثرت النقلة منه وإليه ، كما كثرت التأثير المتبادل (٢) . وهناك أوصاف تفصيلية كثيرة وافية ، ذكرها المؤرخون القدماء ، لهذه المنطقة ، أمثال : هيكتيوس وهيرودوت وسترابو وبليني وبطليموس وبول أوروبز وغيرهم (٣) ، وهذا بالإضافة إلى ما كتبه جغرافيو العرب ومؤرخوهم (٤) .

* * *

وسكان هذه البقعة الأصليون هم « البربر » الذين يختلفون عن السكان المقيمين في جنوبي الصحراء ، جنوبيهم ، وكانوا قديماً ينتشرون على طول ساحل أفريقية الشمالى ، من غربى مصر حتى المحيط الأطلسى ، حتى أطلق على هذه البقعة الفسيحة اسم « بلاد البربر Barbary » (٥) وقد أقاموا فى تلك المنطقة منذ الزمن السحيق ، وعرفهم المصريون القدماء تحت أسماء مختلفة منها : الليبو Lebu والمشواشين Mashuasha وتماحو Tamahu وتحنو Tehenu وكها Kahaka

(١) Deanesly, M., A History of Early Med. Europe, (Lond., 1956), P. 75.

(٢) Alimen, The Prehistory of Africa, PP. 1, 69.

(٣) Rogel, R., Le Maroc chez les auteurs anciens (Paris, 1924), PP. 9 - 40; أنظر كذلك :

أبو الفداء : كتاب تقويم البلدان ص ١ ، ٤ ؛ ابن الوردي ص ٤ ؛ ابن أياس : نشق الأزهار فى عجائب الأقطار ص ٢٢ ؛ البشارى : كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢١٥ - ٢٣١ ؛ الأدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق ص ٢ .

(٤) Yver, G. "Africa" (Encycl. of Islam)

(٥) Encyclopedia Brittanica, "Art. Berbers"

وظهرت هذه الأسماء في النقوش الفرعونية التي ترجع إلى حوالى عام ١٧٠٠ ،
١٣٠٠ ق . م (١) .

وأصل الاسم واشتقاقه مشكوك فيه . أرجعهم البعض إلى الكلمة الإغريقية
الدالة على معنى البربرة الوحشية وأشار إليهم الإغريق بهذا المصطلح أولاً ، وتبعهم
الرومان في ذلك (Barbarus) ؛ كذلك أشار إليهم الأغريق بكلمة تدل على
معنى البداوة (Nomads) ، وهكذا اتبعهم الرومان (٢) . ويقال إن العرب هم
الذين أطلقوا عليهم كلمة « البربر » ؛ وفسر المؤرخون العرب هذه اللفظة تفسيراً
لغويًا ، فقالوا : سمو بالبربر لأن رطاباتهم غير مفهومة لغيرهم ، والبربرة في لغة
العرب اختلاط أصوات غير مفهومة .

* * *

وأشار المؤرخون والجغرافيون من كتاب الغرب ، إلى البربر ، بأسماء مختلفة ،
منها : النساموينون Nasamones والبسيليون Psylli ، وهؤلاء أقاموا في برقة
وطرابلس ، والجرامانثيون Garamantes ويعيشون في البادية ، والمليسيكيون
Makyles & Maxices ، وأقام هؤلاء في ساحل تونس ، أما الموزولاميون
Musulami والنوميديون Numidiae فأقاموا في شرقي المغرب ، وأما الجتيوليون
Geatuli فكان مقرهم في المرتفعات وعلى حافات الصحراء ، وأخيراً المغاربة
Mauri الذين ينتشرون في المغرب الأوسط والأقصى (٣) .

وهناك تسميات أخرى ، أطلقها الرومان والبيزنطيون ، على البربر ، من

Ibid.

(١)

Soames, J. The Coast of Barbary, Lod., 1938), P.. 18 ; Encycl. Br. Art. "Berbers".

(٢)

Basset, R. Berbers (Encycl. of Islam), Vol. I.

(٣)

حيث تقسيمهم إلى شعوب ، بحسب الأقاليم التي أقاموا فيها (١) . والملاحظ أن الرومان ، بصفة خاصة ، أطلقوا على البربر عامة : اسم الجيتوليين والنوميديين والموريين (المغاربة) ، وعنوا بذلك جميع البربر ؛ وهذه الأسماء مشتقة أصلاً من الكلمة الأفرريقية التي تدل على معنى البداوة (٢) .

ولعل هناك صلة بين كلمة « مور » Mauri (المغاربة) ، وبين الكلمة العبرية « ماهور Mahur » بمعنى غربي Western ؛ وهذه أطلقها الرومان في العصر الكلاسيكي ، وعمموها على جميع القبائل المقيمة بشمالى غربى أفريقيا ، وسموا المقاطعات الشمالية الغربية فى أفريقيا باسم مرطانيا Mauritania أى بلاد المغاربة (٣) . وظهر هذا الاسم لأول مرة خلال الحرب اليوجرثية (١١٠ — ١٠٦ ق.م ، نسبة إلى يوجرثا Jugurtha البربرى ملك موريتانيا ، وهى الحرب التى وقعت بين البربر والرومان فى تلك الفترة (٤) .

والخلاصة ، أن جميع سكان شمالى أفريقيا الغربى الأصليين ، من البربر ، مهما اختلفت الأسماء التى أطلقت عليهم ويمكن القول بصفة عامة بأنه من لم يكن زنجياً فى هذه المنطقة ، فهو بربرى ، وذلك قبل الفتح العربى الإسلامى (٥) . والصفات الجنسية التى اشتهر بها البربر ، كما صورهم المصريون القدماء ، أنهم ينتمون إلى الجنس الأبيض بل الأشقر ، ولا تزال الشقرة بادية فى بعض ذرايعهم إلى الآن ، وعموماً البربر جنس أبيض ، رغم وجود اختلافات محلية بين سكان القرى المختلفة ، نتيجة لعوامل المناخ والاختلاط بغيرهم ؛ ولذا كان ما قصده اليونان من كلمة مورى Mauri ، هى ، « الرجال السود » .

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٥ - ٦ .

(٢) راجع ما سبق .

(٣) Cary, A History of Rome, P. 303

(٤) Roget, op. cit., P. 22 ; Cary, op. cit. PP. 303-306.

(٥) لوپون : حضارة العرب ص ٢٤٤ .

وقد وصفهم ابن خلدون وصفاً شاملاً فقال :

« وهذا الجيل من الآدميين ، هم سكان المغرب القديم ، ملأوا البسائط والجبال ... يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ، ومن الشعر والوبر ، ويظن أهل العز منهم والغلبة ، لا تتجاع المرعى فيما قرب من الرحلة ، لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار الأملس ، ومكاسبهم الشاء والبقر ، والخليل في الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم ، شأن العرب ، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأطمان ، في نتاج الأبل وظلال الرماح وقطع السابلة ، ولباسهم وأكثر أثاثهم الصوف ، يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة ، ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤسهم في الغالب حاسرة ، وربما يتعاهدونها بالخلق ، ولغتهم من الرطانة الأعجمية ، متميزة بنوعها ، وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم ... » (١)

والسائد الراجح ، أن فلسطين هي دار البربر الأصلية التي نزحوا منها ، واتجهوا إلى الغرب ، وكان يحكمهم في الزمن السحيق الملك جالوت — الوارد خبره في القرآن الكريم (٢) . فلما قتله داود عليه السلام ، هاجر البربر إلى الغرب ، وتفرقوا في نواحيه ؛ ووقعت هجرتان كبيرتان للبربر من آسيا إلى شمالي أفريقية ، أولاهما : كما يقول صاحب عقد الجمان ، وقعت عندما انهزم فريق من بني حام أمام بني سام ، فهاجر المهزمون إلى بلاد المغرب ، حيث تناسلوا

(١) ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ١٩ .

(٢) وردت قصة جالوت وقومه والحرب بينه وبين داود عليه السلام في سورة البقرة من آية : ٢٤٦ إلى نهاية آية : ٢٥١ . وهناك شرح واف لتفسير هذه الآيات في كتب التفسير ومنها :

الإمام محمد عبده : تفسير القرآن الكريم (مصر ١٣٥٠ هـ) ج ٢ ص ٤٧٦ - ٤٩٢ ؛ تفسير النسفي المعروف بإسم « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » ج ١ ص ٩٤ - ٩٥ ؛ تفسير البيضاوي ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٣ ؛ تفسير الجلالين ج ١ ص ٣٠ - ٣١ الخ

« واتصلت شعوبهم من أرض مصر إلى تخوم السودان » ثم جاء فريق آخر من بنى حام من فلسطين زمن داود عليه السلام . وهم ، كما يقول الطبري والكلبي وابن حزم وابن عبد البر صاحب كتاب التمهيد ، وابن خلدون ، أخلاط من كنعان والعماليق وغيرهم ، نزحوا إلى بلاد المغرب ، فنزلت زنانة ومغيلة وخريسة وفرسنة الجبال ، على حين نزلت لواتة أرض برقة ، ونزلت هوارة مدينة إياس ، وهكذا احتلت كل قبيلة منطقة خاصة بها^(١) . ومنهم من « تمجس ومنهم من تهود ، ومنهم من تنصر ، وكان فيهم رؤساء وملوك وكهان » ، وظلوا على ذلك حتى جاء الإسلام^(٢) .

والبربر ، كما قسمهم جغرافيو العرب ومؤرخوهم ، فرعان هما : البرانسي والبتري ، ويذكر ابن خلدون أن البرانس نسبة إلى جدهم برنس ، والبتري نسبة إلى جدهم مادغيس الذي كان يلقب بالأبتري^(٣) ؛ والراجح أن البرانس نسبة إلى نوع من الزى كانوا يلبسونه وهو البرنس ، والبتري لأنهم كانوا لا يلبسون ذلك اللباس ، والبرانس سكان المدن المتحضرون ، والبتري سكان البادية^(٤) .

والبرانس عشر قبائل : أوربه — صنهاجة — كتامة — مصموده — عجية — أوريفه — أرداجه — لمطه — هكسوره — جزولة . واكل قبيلة من هذه القبائل فروع متعددة ، وأكبر هذه القبائل صنهاجة ، حتى قيل أنهم مقدار الثلث من البربر ، ومن صنهاجة بنو زيري والملمثون وكتامة .

وأقسام البتر : خريسه — نفوسه — أداسه — لواته ؛ ومن جزيره مكناسه وزناته ، ومن زناته جراوه وهم قوم الكاهنة « داهيا » صاحبة جبل أوراس التي أوقعت بجيش حسان بن النعمان عامل الخليفة عبد الملك بن مروان ،

(١) ابن خرداذبة . المسالك والممالك ص ٩١ ، الأدريسى : نزهة المشتاق ص ٥٧ .

(٢) الاستقصا ج ١ ص ٥٣ ؛ ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ٩٣ - ٩٦ .

(٣) الاستقصا ج ١ ص ٥٧ .

(٤) عبد الحميد العبادي : موجز تاريخ الأندلس .

ومن زناته كذلك بنو خرز المغراويون ، ملوك تلمسان والمغرب الأوسط ،
وبنو بقرن وبنو زيان وبنو مرين . ولكل قبيلة عمائر وبطون وأنخاذ
لا حصر لها (١) .

ابتدأ نفوذ الرومان يمتد إلى ساحل أفريقية الشمالى منذ العهد الجمهورى ،
وذلك على أثر الحروب الطاحنة التى دارت بينهم وبين الفينقيين ، وانتهت بإزالة
ملك الفينقيين من شمالى أفريقية بعد أن مكث نحو سبعائة عام (٢) .

وتركزت أملاك الرومان فى شمالى أفريقية ، زمن الأمبراطور أغسطس
(ت ١٤ م) ، فى مملكتى نوميديا Numedia وموريتانيا Mauritania ،
فلما أعاد الأمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) تنظيم الأمبراطورية الرومانية ،
قسم هذه الأملاك إلى سبعة أقسام إدارية لتسهيل إدارتها وحماية الأمن فيها ، ونى
من الشرق إلى الغرب : طرابلس Tripolitana ، بيزا كينا Byzacena ،
وأفريقية القنصلية أوزوجتانا Africa Proconsularis or Zeugitana ،
ونوميديا ، وستيفنس Sitifensis ، وقيصرية Caesarienses ، وطنجه
Mauritania Tingitana (٣) .

(١) الاستقصا ص ٥٧ - ٥٨ ؛ ابن خرداذبة ص ٩٠ ؛ الأدريسى ص ٥٧ ؛

ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ٨٩ - ١١٤ .

(٢) موطن الفينقيين الأصلى هو سواحل الشام وفلسطين ، وهم عرب ، ضربوا بسهم كبير
فى التجارة والملاحة البحرية ، ويرجع وصولهم إلى سواحل أفريقية الشمالية الغربية إلى حوالى
عام ١٢٠٠ قبل الميلاد ؛ أقاموا المراكز التجارية على طول السواحل التى وصل نفوذهم إليها ،
وبنوا قرطاجنة خلال القرن التاسع قبل الميلاد ، وكانت لهم إمبراطورية بحرية كبرى ، كما كان
أسطولهم يسيطر على البحر الأبيض (أنظر :

Gsell, S., Histoire ancienne de l'Afrique du Nord (Paris, 1921) Ts. I, II.

أنظر :

Soames, op. cit., PP. 28-29 ; Ch. André, J., op. cit., PP. 63-127 ; Mommsen,
T., The Hist. of Rome Vol. III, P. 321 ; Bury, J., A Hist. of the Roman Empire
from the Foundation to the death of Aurelius (27 B.C.-180 A.D.) PP. 89-90, 239 ;
Salmon, E.T., A Hist. of the Roman Empire, P. 106 ; Roget, op. cit., PP. 17-40 ;
ابن خلدون ص ٢ - ١٠٢ ؛

Hodgkin, T., Italy & her Invaders, Vol. II, PP. 232-3

(٣)

يتضح من هذا التقسيم ، أن كلمة أفريقية أو ولاية « أفريقية الأصلية » Africa Vetus ، كانت تعنى عند الرومان أحد هذه الأقسام السبعة ، وتشمل جغرافياً ما هو تونس الحالية تقريباً^(١) ؛ ومع ذلك استعمل هذا المصطلح أحياناً استعمالاً عاماً ، وأطلق ليدل على كل شمالى أفريقية^(٢) وذلك لأهمية هذا القسم ، إذ كان مركز الحكم لجميع شمالى أفريقية الرومانى ، بل كان نقطة البدء فى بسط السيطرة الرومانية ، فمنه امتد الرومان وتوسعوا شرقاً وغرباً^(٣) .

ويدل المصطلح « أفريقية الرومانية » على جميع المنطقة الساحلية الممتدة من غربى برقة شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسى غرباً ، باستثناء ولاية طنجة المطلة على المحيط ، فهذه كانت تتبع أسبانيا والغال من الناحية الإدارية ، ولم تكن ضمن أفريقية الرومانية^(٤) ، ويرجع السبب فى ذلك ، لعوامل جغرافية ، تلخص فى صعوبة المواصلات الداخلية بينها وبين جيرانها فى الشرق من أملاك الرومان ، فهناك منطقة صحراوية يبلغ طولها أكثر من مائتى ميل ، تفصلها عن أقرب جار لها من الشرق ، حتى أنه لم تكن هناك مواصلات برية تصل بين طنجة Tingis فى المغرب ، وبين قيصرية Caesarea ، فى شرقى موريتانيا^(٥) ؛ ومن ثم رؤى أن ترتبط ولاية طنجة أو تلحق بالولايات الرومانية المتحضرة وشمالها عبر المضيق^(٦) ومن ناحية أخرى ، لهذا العامل الجغرافى أثره فى تفسير خطورة المغاربة الذين كانوا كثيرى الاغارة على الرعايا الرومان فى بايتيكا Bactica

Thomson, op. cit., P. 256.

Fage, J.D., An Atlas of African Hist., PP. 6-7

Soames, PP. 30-38.

Deanesy, M., op. cit., P. 75.

Bury, J., op. cit., P. 89.

Hodgkin, T. op. cit., P. 233.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

(الأندلس فيما بعد) ، أكثر من خطورتهم على رومان أفريقية . ونظراً لاستهداف بايتيكا لهذا الخطر العابر من أفريقية ، وصفها شاعر لاتيني معاصر للإمبراطور نيرون (٥٤ — ٦٨ م) بأنها : *Trucibus obnexia Mauris* (١) .

ومن المحتمل أن ولاية طنجة ظلت بنجوة من غزو الوندال وتخريبهم ، ولو أن الوندال حصنوا مدينة سوتا (٢) ؛ بمعنى آخر ، بقيت ولاية طنجة جزءاً من الإمبراطورية الرومانية ، خلال السيادة الوندالية على شمالي أفريقية (٣) .

وكانت ولاية موريتانيا (مرطانية) تشغل نحو ثلاثة أرباع مساحة الجزائر الحالية (٤) ، ورغم وجود مزارع القمح الكبيرة بها ، في السهول الواقعة بين الجبال وشاطئ البحر الأبيض ، إلا أنها خلت من المدن الكبيرة الهامة ، باستثناء المدينة التجارية الكبرى « قيصرية » . صارت موريتانيا فيما بعد جزءاً من مملكة الوندال (٥) .

أما ولاية طرابلس *Tripolitana* ، الواقعة في أقصى الجانب الشرقي من أفريقية الرومانية ، فيرجع تسميتها بهذا الاسم (طرابلس) إلى الثلاث مدن الرئيسية وهي : لبتس الكبرى *Leptis Magna* — وهي لبدة الحالية — وأوثيا *Oea* — وهي مدينة طرابلس الحالية — وسبراتا *Sabrata* — صبره المعاصرة — وكلمة طرابلس معناها الثلاث مدن ؛ ويسمياها العرب « أطرابلس » (٦) . ومركز هذه الولاية مدينة طرابلس ، واشتهرت في القرن الثالث الميلادي لأنها

Bury, J. op. cit., P. 89.

(١)

(٢) أنظر ما يلي والخريطة رقم ٣ .

Hodgkin, op. cit., P. 233.

(٣)

Lot, Les Invasions, G. 45 ; Hodgkin, P. 234.

(٤)

(٥) أنظر ما يلي والخريطة رقم ٣ .

(٦) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٦٦ .

كانت من المراكز المسيحية الهامة ، وقد منحها دقلديانوس لقب «ولاية» وليس لولاية طرابلس أهمية في نظر المؤرخ الروماني سوى أنها كانت مسقط رأس أحد أباطرتها ، وهو الإمبراطور س. ساويرس Septimus Severus (١٩٣ — ٢١١ م) ، فهو من مواليد مدينة لبدة ، ومن أصل بربري وروماني^(١) .

والمعروف أن الرومان كثروا وازدهروا في ولاية أفريقية الأصلية : Africa Vetus ، وكذلك في جارتها بيزا كينا ، فضلاً عن نوميديا التي عرفت كذلك باسم «أفريقية الجديدة» منذ زمن قيصر (ت ٤٤ ق.م) ، فهذه المنطقة الوسطى من شمالي أفريقية الروماني ، تكون قلب الأملاك الرومانية وأهمها وذلك قامت معظم المدن الرومانية العامرة فيها^(٢) ، وتتميز بالخصب والثراء عما سواها ، ولا سيما ولاية أفريقية ، وهي الولاية التي تعد أغنى بقعة في شمالي أفريقية وبالتالي أكثرها ازدهاراً^(٣) . فضلاً عن شهرتها في إنتاج القمح ، فهي مشهورة كذلك بزراعة الفواكه ، يقول الشاعر هوراس Horas (٦٥ — ٢٧ ق.م) . في إحدى أناشيده متغنياً بخصبها^(٤) : “Imperio Fertilis Africae” . ورغم أن نبيذ أفريقية دون نبيذ أسبانيا وإيطاليا ، إلا أنها غنية في محصول القمح ، وأسهمت مع مصر وصقلية في إمداد روما (ومن بعدها القسطنطينية) بالقمح ، بل إنها تعتبر الولاية الهامة الثانية بعد مصر في القارة السوداء ، من حيث كونها مخزن القمح للرومان^(٥) ؛ وتتميز بالنشاط

(١) ولد الإمبراطور ساويرس عام ١٤٦ ، وفي عهده بلغت أفريقية الرومانية ذروة حضارتها وتطورها .

أنظر : Soames, Roman Africa (Lond., 1902), PP. 196-208 ; الزوارى ص ٣٤ .

(٢) Fage, op. cit., PP. 6-7.

(٣) Pirenne, H., A Hist. of Europe from the Invasion to the 16th century, P. 34 ; Thomson, op. cit., P. 250.

(٤) الشاعر كوينتوس صورافيوس فلاكوس من شعراء عصر اغسطس .

Quintus Horatius Flaccus وأنظر : Bury, op. cit., p. 92

(٥) Salmon, op. cit., P. 106.

والحركة ، وفيها إلى الآن ، بقايا دور التمثيل والجمامات وأقواس النصر ، وقد جعلت هذه الولاية « سناتوروية » مسلحة ، أى يترك أمر الرقابة عليها إلى السناتور الرومانى (١) .

أقام الرومان حضارتهم فى شمالى أفريقيا على أسس فينيقية ، أى على أسس سامية ، إذ كانت صبغة هذه المنطقة القديمة فينيقية إغريقية ، مع غلبة العنصر الفينيقى ، وذلك على عكس جزيرة صقلية التى كانت ذات صبغة إغريقية فينيقية مع بروز العنصر الإغريقى فيها ، لذلك أرست روما حضارتها وتقاليدها على قواعد فينيقية ، فأبقت على الدساتير الفينيقية فى المدن ، كما أبقت على نظام المقاطعات cantons فى غالة (فرنسا الحديثة ؛ وهناك تشابه وتقارب بين هذه النظم سواء فى أفريقية أم فى غالة ، وبين ما هو كائن فى إيطاليا ، بحيث كان النقل ميسوراً وسريعاً (٢) .

ولذلك نجد أن مدينة قرطاجنة ، وهى التى قضت عليها السياسة القصيرة

(٥) يلقب حاكم الولاية السناتوروية بلقب « برو قنصل Pro-Consul أى ونائب القنصل » ويبقى عادة فى منصبه مدة سنة واحدة ، ولكن أصبح من الممكن بعد عهد أغسطس (ت ٤ م) أن يظل الحاكم لمدة ست سنوات . غير أن أفريقية وآسيا ، من بين الولايات السناتوروية ، كان الحاكم فيها يلقب « بالقنصل السابق » « ex-consul » ، ويظل الواحد منهم فى منصبه سنتين أو أكثر من سنتين فى بعض الأحيان . ومن الشروط الواجب توافرها فىمن يلى حكم هذه الولاية ، ألا يعين إلا بعد مضى عشر سنوات على القنصل بعد انتهائه من وظيفة القنصلية ، أما حكام الولايات السناتوروية الأخرى ، فيلقب الواحد منهم بكلمة « البريتور السابق » « ex-Practor » ولا يعين فى منصبه بهذه الولايات إلا بعد مضى خمس سنوات على تركه الوظيفة البريتورية . والولايات السناتوروية عند وفاة أغسطس هى : أفريقية Africa ، Cyrene ، أكايا Achaea ، ومقدونيا (أكايا ومقدونيا ولايات إمبراطورية فى الفترة ما بين ١٥ إلى ٤٤ م) ، بايتيكا Bactica (الأندلس) زاربوننس Narbonensis ، وذلك فى الفترة ما بين ٢٢ ق م ؛ غالة البعيدة Gallia Narbonensis ، وآسيا Asia : بثينيا Bithynia التى أصبحت ولاية إمبراطورية زمن تراجان المتوفى عام ١١٧ م ؛ وقبرص وكريت ، وصقلية :

Chapot, V., Le Monde Roman, PP. 436-467 ; Salmon, op. cit., PP. 76-77)

Bury, op. cit., P. 91.

(٢)

النظر للسناتور الجمهوري^(١) ، قد أعيدت لها أهميتها وازدهارها في عهد الإمبراطورية منذ قيصر ، حتى صارت عاصمة أفريقية الرومانية ، كما كانت من قبل عاصمة أفريقية الفينيقية ، بل غدت أعظم وأثرى المدن في غرب أوروبا . ومن أجل عظمتها ورخاؤها وراثتها ، عرفت بإسم « قرطاجنة السعيدة Felix Kartago » ، ويقال إن هذه العبارة كانت تنقش على العملة الإمبراطورية ، وإلى جنوبها ميناؤها الشهيرة كوثنون Cothon الذي فتح للتجارة العالمية ، وبها الحمامات والسوق والمسرح ، وكل مظاهر المدينة الرومانية .

وفي قرطاجنة خمسة معابد فينيقية قديمة ، وهي لآلهة أسيوية ، وقد حوت هذه المعابد للآلهة الرومانية ، زمن الإمبراطورية ، وهي الإله أيسكولابيوس Aesculapius إله الطب ، وزحل Saturn إله الزراعة وأبو المشتري ، والآلهة يونو Juno زوجة جوبيتر وملكة السماء وراعية الزواج في الأساطير الرومانية ، وهرقل ، وعطارد Mercury رسول الآلهة وإله التجارة والكسب والفصاحة والبلاغة ؛ ونظراً لجمال معبد الآلهة الأخير ، عرفت قرطاجنة في القرن السادس الميلادي ، « بإسم مدينة عطارد » ، كما عرف لسانها الممتد داخل البحر بإسم « رأس عطارد^(٢) » . وربما دمر بعض المعابد الفينيقية القديمة خلال حماس المسيحية في القرن الرابع الميلادي^(٣) .

ومن المدن الشهيرة في ولاية أفريقية ، أوتيكا Utica ، وهي منافسة قديمة لمدينة قرطاجنة ، ظلت تحسدها وتمجد عليها ولا سيما عندما أعيدت إليها شهرتها ومكانتها التاريخية ؛ كذلك اشتهرت مدينة كيرتا Crita في نوميديا وتقع على نهر

Gsell, S., T. III, PP. 336-407. (١)

Gsell, op. cit., I. II, PP. 1-37, 93-112 ; Deanesly, op. cit., P. 75 ; (٢)
Bury, op. cit., P. 91.

Davis, N., Carthage & her Remains (Lond., 1861), PP. 1-2, 35 ; (٣)
Hodgkin, op. cit. 239-240.

امبساجا ، وهى المعروفة حالياً باسم « قسطنطينية »^(١) وفى موريتانيا ، تجدد من المدن الشهيرة كلوبيا Clupea وهيبودياركيتوس Hippo Diarrkytos^(٢) .

ولما كانت موريتانيا متخلفة فى الأخذ بأهداب الحضارة الرومانية، فقد بذلت جهوداً كبيرة ، من لدن أغسطس ، من أجل بناء المدن الرومانية على الساحل ، لتكون مراكز لنشر الحضارة الرومانية .

وبجانب المدن الفينيقية العريقة ، والمدن التى بنيت على النسق الرومانى ، هناك مدن وطنية بربرية ، تخضع مباشرة لسلطة الحاكم الرومانى العام ، وأحياناً يعين لها حكام رومانيون محليون^(٣) ، على أن هناك عدداً كبيراً من القبائل البربرية الوطنية . تخضع لرؤسائها (reguli) الوطنيين ، ولكن تحت إشراف الحكام الرومان ، وقد عد منها بلىنى Pliny نحو ست وعشرين قبيلة ، على حين ذكر بطليموس نحو تسع وثلاثين منها^(٤) . والواقع أن القبائل البربرية كانت منقسمة متناحرة ، لكنها تتحد أحياناً ضد العدو الأجنبي ، فيما يشبه كونفدرالية مفككة Loose Confederation ، ولذلك لم ينجحوا فى إقامة دولة ثابتة قوية ، رغم أن البربر يشتهرون فى التاريخ بأتهم جنس محارب ، وأنهم لم يخضعوا لأى فاتح خضوعاً تاماً ، فكان الولد منهم إذا بلغ السادسة عشرة من عمره ، سمح له بحمل السلاح ويظل كذلك حتى سن الستين .

وحدث خلال فجر الفتوح الرومانية فى شمالى إفريقيا ، وخلال الصراع بين روما وقرطاجنه ، أن تكونت مملكة نوميديا البربرية بمساعدة الرومان ، وشملت قبائل البربر المنتشرين من نهر مولويا Muluya غرباً إلى خلجان سريتس Syrtis

(١) أنظر الخريطة .

Bury, op. cit., P. 91.

(٢)

Bury, op. cit., P. 91.

(٣)

Thomson, op. cit., P. 256.

(٤)

وكذلك قامت مملكة الترانستا جنسس *Transtagensis* ومملكة اللوزولاميين *Musulami* ، وتقع كلتاها جنوبي شرق ولاية أفريقية ، وامل هذا النفر الأخير هم الذين أشار إليهم اليعقوبي باسم « المصاليين » وهم فرع من البربر والأفارقة ، استقروا في طرابلس واشتهرت مملكتهم بكثرة الإغارة على أملاك الرومان ، وكانت دائمة الحركة والنقلة بحثاً عن المرعى والغنم ، ولذا كانت أكثر من غيرها إقلاقاً للرومان ، حتى سلك الرومان نحوها مسالك مختلفة ، من ذلك أنهم جندوا عدداً كبيراً من أبنائها في الفرق الاحتياطية للإمدادات (١) .

كان على الرومان أن يعملوا على حماية أملاكهم دائماً من خطر هذه الممالك الوطنية المتاخمة لهم ، وهذا ما حملهم على تسليح ولاية أفريقية السناتوروية تسليحاً كافياً ، وركزوا فيها معظم الحاميات الرومانية (٢) . وكانت مهمة الدفاع شاقة عسيرة ، نظراً لوعورة المواصلات البرية بين الأملاك الرومانية في شمالي أفريقية ، وتكاد الحرب بين الرومان والبربر تكون سجالاً ، منذ فجر سيطرتهم على الساحل .

من هذه الحروب ، ماثنه القائد الروماني بالبوس *L. Corn. Balbus* عام ١٩ ق . م ضد الجرامنتيين في طرابلس ، وكلت حملته بالنجاح (٣) . وتلك الحملة التي قادها سلبكيوس كويرنيوس *P. Sulpicius Quirinius* ضد قبائل المارمرية *Marmaride* في برقة قبل عام ١٢ ق . م (٤) . كذلك شن القائد لتولس *C.C. Lentulus* حرباً ضد قبائل الجيتوليين عام ٥٥ م ؛ ومنذ عام ٦٦ م ، شرعت إدارة أفريقية الرومانية ببعض الأمن والهدوء ، حتى اكتفى الرومان بوضع

Salmon, P. 106 ; Encyl. of Islam, A. 'Berbers'

(١)

Lot, Les Invasions, PP. 45-46 ; Salmon, P. 112.

(٢)

Bury, P. 90.

(٣)

Salmon, P. 106.

(٤)

فرقة حزبية واحدة في ولاية أفريقية ، وعرفت هذه الفرقة باسم ؛ أوغسطا الثالثة ؛ ورغم هذا لم تنقطع الغزوات البربرية (١) .

ولم يكف زعماء البربر الوطنيون عن مهاجمة الرومان ، حتى لاحت الفرصة ، فتكررت ثوراتهم وهجراتهم زمن الأباطرة دوميتيان Domitian (٨١ - ٩٦ م) وهادريان (١٧ - ٣٩) وكومودوس (٦١ - ١٩٢ م) . ولما ضعف سلطان روما قرب نهاية القرن الثالث الميلادي ، ازدادت ثورات البربر كثرة وعنفًا ، واشهر إثنان من زعمائهم بكثرة تحديهما للاستعمار الروماني وهما : فرماس Firmas ، وذلك في الفترة الواقعة بين ٣٧٢ م ، ٣٧٤ م ، والثاني جلدون Gildon (٣٩٨ م) ، وكان عدااء البربر للرومان من العوامل التي ساعدت الوندال على انتزاع شمالي أفريقية من السيطرة الرومانية في القرن الخامس الميلادي (٢) .

وكان بجانب البربر والمستوطنين الرومان ، في شمالي أفريقية ، نفر كبير عرف باسم « الأفارقة » وهؤلاء خليط من الأجانب اللاتين المستوطنين الذين طال مكثهم بالبلاد ، حتى أصبحوا أفريقيين ، وبقايا الشعب القرطاجني القديم ومزارعي البيزنطيين وصناعهم ، بالإضافة إلى نفر من البربر ممن استقر ودخل في طاعة الرومان والبيزنطيين (٣) .

وخلال سيطرة الرومان على شمالي أفريقية ، أخذت الحضارة الرومانية واللغة اللاتينية تنتشر تدريجياً إذا كانت لغة البربر الوطنية لاتزال قائمة في المناطق المتطرفة ، والتي لم تصل إليها السيادة الرومانية ، كما أن اللغة الفينيقية هي التي كانت منتشرة

(١) Salmon, PP. 106, 130 ; Ch.-André, PP. 138-142, 193-212.

(٢) Basset, op. cit. .

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩١ - ٩٢ ؛ مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٤ - ٥ ، وله كذلك : ثورات البربر في أفريقية والأندلس (بحث نشر بمجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - المجلد العاشر - الجزء الأول - مايو ١٩٤٨) ص ١٤٣ - ٢٠٦ .

على طول الساحل ، فإن الرومان وقفوا من هذه اللغات الوطنية موقفهم التقليدي نحو اللغات المحلية ، كما فعلوا بالنسبة للغة الأيبيرية في أسبانيا ، واللغة السكتية في الغال ، أى تركوا هذه اللغات وشأنها ، ولكنهم اعتمدوا على اللغة الفينيقية كلغة للتفاهم والاتصال في أفريقية الرومانية ، نظراً لانتشار هذه اللغة على طول الساحل من طرابلس شرقاً إلى طنجة غرباً ، وظلت اللغة الفينيقية هي المستعملة حتى ظهور المسيحية ، بل امتدت إلى القرن الأول الميلادي حتى زمن الإمبراطور بتيريوس (١٤ — ٣٧ م) ، وليس هناك ما يشير إلى بقاء استخدام اللغة الفينيقية رسمياً بعد عهد بتيريوس (١) .

ولما رفضت روما الاعتراف باللغة الفينيقية كلغة رسمية للتخاطب بين الحكومة والرايا ، على عكس موقفها من اللغة الإغريقية التي اعترفت بها لغة رسمية في الولايات الشرقية من الإمبراطورية ، وقررت أن أفريقية وصقلية تابعتان للغرب اللاتيني اضطر الوطنيون في شمالي أفريقية إلى تعلم اللغة اللاتينية واستخدامها في أعمالهم الرسمية مع الحكومة ، على حين ظلوا يستخدمون الفينيقية في معاملاتهم الداخلية المحلية ، وهكذا أخذت اللغة اللاتينية تحمل تدريجياً محل اللغة الفينيقية ، أولاً في الحياة الرسمية ، ثم في الحياة الاجتماعية ؛ وفي نهاية القرن الرابع الميلادي صار الوضع النسبي لهاتين اللغتين ، يشبه وضع اللغة الإنجليزية بجانب اللغة الولشية Welsh ولكن تحتم على رجال الدين في أفريقية أن يجيدوا اللغة الفينيقية ، على الأقل في المناطق الريفية التي قد يمينون للعمل فيها (٢) .

وليس من شك في أنه خلال القرن الخامس الميلادي كانت اللغة اللاتينية والآداب اللاتينية تضرب جذورها بعمق في التربة الأفريقية . ومن المعروف في تاريخ الكنيسة ، أنه خلال العصور الأولى للمسيحية ، برز زعماء روحانيون من أهل الولاية الأفريقية ، وصاروا أئمة في اللغة اللاتينية والآداب اللاتينية فضلاً

Hodgkin, op. cit., P. 238.

Ibid.

(١)

(٢)

عن الثقافة الدينية ، بل هناك مشرعون أفريقيون أمثال سالفوس يوليانوس .
Salvius Julianus — جسد الإمبراطور ديدوس سالفوس يوليانوس
D.S. Julianus الذي جاء فيما بعد (ولد حوالي ١٣٣ م وتوفي ١٩٣ م) — ؛
وقد اختار الإمبراطور هادريان (١١٧ — ١٣٩ م) ، هذا المشرع الأفريقي ،
لجمع القانون وتبويبه ، فأبجز عمله في عام ١٢٩ (١) م . ومن أعلام زعماء الكنيسة
الأفريقيين من اللاتين : ترتوليان (١٥٠ — ١٢٢ م) Quintus Septenus
Tertulianus أعظم كتاب الكنيسة القدماء ، لكنه في المنزلة الثانية بعد
القديس أوغسطين ، وكبيران Caecilius Cyprian القرطاجني ، وهو الذي
تولى أسقفية قرطاجنة في الفترة ما بين ٢٤٨ و ٢٥٨ م واشتغل أستاذاً للبلاغة
من قبل (٢) وهناك أستاذ البلاغة الآخر أرنوبيوس النوميدي Arnobius ،
اشتهر عام ٣٠٠ م . كذلك لأكتانتوس Lactantius Firmianus ،
(٢٦٠ — ٣٤٠) وهو من كتاب الكنيسة القدماء ، وأطلق عليه المعاصرون
لقب « شيشرون المسيحي » وتنتهي قائمة هؤلاء العظماء الإفريقيين ، بالشخصيتين
البارزتين هما : مارتينوس كابلا M. Capella والقديس أورليوس أوغسطين
St. Aurelius Augustinus ؛ وربما كان الأخير أعظم شخصية مسيحية
أنجبتها أفريقية في فجر العصور الوسطى (٣) .

ألف مارتينوس رسالة في علم اللغات ، في الفترة ما بين استيلاء الأريك
القوطي على روما (٤١٠) وبين فتح جزيرك الوندالي أفريقية (٤٢٩) ،
ويحتمل أن هذه الرسالة هي التي حددت عدد الفنون الحرة بسبعة وهي : النحو
والمنطق والبلاغة والهندسة والحساب والفلك والموسيقى (٤) .

Salmon, P. 310.

(١)

Bury, P. 91 ; Deanesly, P. 75.

(٢)

Rand, E.K., Founders of the Middle Ages, (New York, 1957), PP. 251-266 ; Hodgkin, PP. 338-339.

(٣)

Deanesly, P. 86 ; Deanesly, PP. 86-87.

(٤)

أما أوغسطين الهيباوى (٣٥٤ — ٤٣٠ م) ، فقد درس في أفريقة النحو والأدب اللاتينى وكذلك البلاغة ، واشتغل أستاذا للبلاغة في ميلان ، حيث تأثر بالأسقف العظيم أمبروز Ambrose ، صاحب الموقف الشهير مع الأباطور تيودسيوس الكبير ، كما تأثر بالأفلاطونية الحديثة Neoplatonism ، وسمع لأول وهلة ، وهو في ميلان ، بحياة النساك التي يحياها الرهبان المصريون ، ولاسيما الراهب أنطون ، واضع أسس الرهبانية الانعزالية ؛ ومن ثم ، عزم على العودة إلى أفريقية ليقم نوعا من الحياة الرهبانية الاجتماعية ، ونفذ مشروعه عام ٣٨٨ م ، وعين قسيسا في كتدرائية هيبورجيوس ، وولى أسقفيتها عام ٣٩٦ م على أثر وفاة أسقفها السابق فالريوس Valerius ، وظل على ذلك حتى توفي خلال حصار الوندال لمدينته عام ٤٣٠ م . وكان أوغسطين يعرف الفينيقية ، وهو الذى أصر على أن يلم القسس بهذه اللغة ، وكان مثالا للحياة النقية الطاهرة تشبها بالحواريين ، وأمد الكنائس الأخرى برجال الدين الذين درّبهم وعلمهم ، فعاش هؤلاء في كنائسهم الجديدة على طريقته . ووضع قواعد regula في أصول الديرية ، كما وضع قواعد لأصول حياة الراهبات 'regula Sororum' ، وكانت أخته رئيسة لجماعة مشابهة من النساء الناسكات ، ولما جاء الوندال قضوا على هذا النظام في أفريقية ، فانتقل إلى أوربا مع تعديل يقتضيه جو أوربا ، كزيادة وجبتى الطعام اليومية اللتين كانتا تكفيان الراهب في اليوم ، ولكنهما لم تعود تكفيان في جو أوربا .

ثم إن الكثير من الحركات الديرية مثل البريمونسترانية Praemonstratensian والداوية Tempeliers والدومينيكانية ، قد أخذت أصولها من قاعدة أوغسطين ، ولهذا أثره في مدينة العصور الوسطى ، لأن الأديرة كانت تضم مدارس للتعليم ، وأدت ما نسميه اليوم بالخدمات الاجتماعية من تريض ورعاية الطفولة والعواجز ، ونحو ذلك . ولذلك إدا عهد القديس بندكت أبا الديرية الغربية ، فإن القديس أوغسطين يمد أبا للحياة الدينية المستقيمة لرجال الدين .

وأما كتابه عن « مدينة الله » De Civitate Dei ، فهو يساعد على تصوير جو التفكير الأوربي خلال العصور الوسطى ، ويتكون من ٢٢ جزءاً ، كتب في الفترة ما بين ٤١٣ و ٤٢٦ م ، وطبع كل جزء على حدة ، ورد فيه أوغسطين على ما شاع في أوربا يومئذ بأن سقوط روما على يد الأريك (٤١٠) دليل على غضب الله ، وأن ذلك منذر بانتهاء العالم ، وفي نظر الوثنيين كان ذلك إشارة لانتقام الآلة الوثنية القديمة بسبب اعتناق الأباطرة للديانة المسيحية ، وكان الإمبراطور يوليان الصابيء قد مات قبل أن يبدأ أوغسطين في تأليف رسالته بأربعين سنة ، وظل أهل الريف يعتقدون في قيمة الطقوس الوثنية القديمة .

أراد أوغسطين أن يوضح في رسالته أمرين : أولهما أن الآلهة الوثنية لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً ولا دخل لها في الخير أو الشر أو العدالة ، وأن الإمبراطورية الوثنية لا تفلح إذا افتقرت إلى العدالة ، والثاني أن روما مدينة أرضية : 'Civitas terrena' ، وهي زائلة ؛ ولكن مدينة الله C. Dei فهي خالدة باقية (١) .

وهكذا أنجبت أفريقية أعلاماً في معظم الميادين ، نظراً لأن التربة الأفريقية صالحة للبذر والبناء ، بحيث أن الرومان لم يفعلوا أكثر من أنهم فرضوا إسمهم ولغتهم على ما هو قائم فعلاً ، كما يقول العالم الجرمانى مومن Mommsen (٢) . والواقع أن الحضارة الرومانية في أفريقية ، قد بنيت على تراث الحضارة الفينيقية القديمة ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وإلى الأفريقيين كذلك ، يرجع الفضل في إخراج الجزء الأكبر من الترجمة اللاتينية الأولى للإنجيل ، وهي المعروفة باسم إيتالا Itala ؛ ولقد ظل قادة الفكر

(١) Courcelle, P., Histoire Litteraire des Grandes Invasions Germaniques, (Paris, 1948), PP. 49-55 ; Soannes, op. cit., PP. 46-64 ; Ch.-Andre, op. cit, PP. 219-230 ; Rand, E.K., op. cit.° PP. 251-271.

مشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطى (القسم الأول ترجمة زيادة والعريفي) ص ٢٤ (٢) Hodgkin, op. cit., PP. 235-236.

في القسطنطينية يعتقدون ، حتى بعد غزو الوندال بقرن من الزمان ، أن أهل الولايات الرومانية في أفريقية ، يتكلمون اللغة اللاتينية بطلاقة أكثر من سكان روما نفسها ؛ وظلت البلاغة اللاتينية تدرس على نطاق واسع في ولايات أفريقية ، مما يدل على مدى تقدم الحضارة الرومانية فيها ، ومع ذلك لم يبرز شاعر يشار إليه بالبنان في ميدان الإنتاج اللاتيني الأفريقي ، في رأي المؤرخ مسمن (١) .

*

على أن أحوال أفريقية الرومانية الاقتصادية قد ساءت خلال القرن الرابع الميلادي ، نتيجة لكثرة المصادرات التي توالى منذ القرن الأول الميلادي ، ولا سيما زمن فيرون (٥٤ — ٦٨ م) ، وزمن هونوريوس (٣٩٥ — ٤٢٣ م) ، وكثرة تكوين الضياع الأباطورية Latifundia ؛ واقترن قيام هذه الضياع بعملية تحويل الفلاحين إلى أرقاء زراعيين للعمل فيها ، تحت إشراف موظفين في غاية القسوة والعسف ؛ كذلك أضحت نظام الضرائب قاسياً لا يحتمل (٢) .

ومن الناحية الدينية ، اشتهرت البيئة الأفريقية بكثرة الآراء اللاهوتية ، والتعصب المذهبي ، وساد في أفريقية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، مذهب « الدوناتية » Donatism ؛ ظهر هذا المذهب في مطلع القرن الرابع للميلادي واستمر لمدة تربو على قرن من الزمان ، رغم ما تعرض له أصحابه من ألوان الاضطهاد والمطاردة ، وانتشر في نوميديا وموريتانيا ، أكثر من غيرها من أملاك الرومان .

قام مذهب الدوناتية ، أصلاً ، نتيجة لجدل محلي حول تعيين أحد الأساقفة في منصبه ، وعماً إذا كان جديراً بمنصبه أم لا ؛ ثم تطور الجدل فتناول بعض

Ibid, P. 239.

Salmon, op. cit., P. 309 ; Ch.-André, PP. 148-166, 193 ; Hodgkin, PP. (١)

236-237. (٢)

المسائل المتعلقة بطبيعة الكنيسة ووظائفها الأصلية . اختلف الرأي اصداد رسم الأسقف كايكيليان Caecilian في أسقفية قرطاجنة عام ٣١١ م ، فقد رسمه فيليكس Felix أسقف ايتونجا Aptunga دون انتخاب عام . احتج أساقفة نوميديا على طريقة التعيين فضلاً عن عدم لياقة كايكيليان لمنصبه ، ويضاف إلى ذلك أن كايكيليان متهم بالخيانة تزعم حركة المعارضة سكيندوس Secundus رئيس أساقفة نوميديا ، وقام على رأس ٧٠ أسقفًا وتوجه إلى قرطاجنة وعزل كايكيليان وحرمه من الكنيسة وعين بدلاً منه ، فانقسمت الكنيسة في شمالي أفريقيا إلى حزبين متناحرين ، وطلب كل حزب تدخل الإمبراطور قسطنطين الأكبر ، وتجاهلوا المبدأ القائل بعدم تدخل الإمبراطور في شئون الكنيسة : 'Quid Imperatori cum Ecclesia' ، فأمر قسطنطين بعقد مجمع ديني ، أقر صحة تعيين كايكيليان ، وأدان المعارضين ولا سيما زعيمهم الذي اشتهر في ذلك الوقت وهو مايورينوس Majorinus ، الذي دفعته حماسته وتمصبه إلى إعادة تعميد المسيحيين وإعادة رسم الأساقفة الذين ناصروا خصومهم أولاً . ثم جاء في زعامة المعارضين شخصية قوية ، هي شخصية دوناتوس العظيم : Donatus Magnus ، ويحتمل أن اسمه هو الذي أطلق على هذه الجماعة ؛ أصدر الإمبراطور قسطنطين قراراً بحرمان الدوناتيين من الكنيسة إذا لم يعدلوا عن آرائهم ، واستهدفوا بعد ذلك إلى الاضطهاد (١) .

والملاحظ أن مذهب الدوناتية ، ليس هرطقة أو بدعة ، ولم يؤد إلى قيام تعاليم جديدة ، أو نزاع حول العقيدة ، ولكنه حركة لمقاومة التطور العلماني الذي كانت تسير فيه الكنيسة ، مما يؤدي إلى تحويلها من مجتمع لأشخاص مقدسين إلى مجتمع لطائفة مضطربة مختلفة إلا أنهم كانوا ينكرون صحة التعميد إذا تم على يد قسيس ارتكب خطيئته من قبل (٢) وكان الدوناتيون أكثرية في مدينة

(١) Encyclopedia of Religion & Ethics Art. "Donatists".
(٢) Villari, P. The Barbarian Invasion of Italy (Lond., 1902), PP. 93-95.
فشر (نفسه) ص ٩ حاشية (١) .

هيبو حتى أنهم قطعوا الخبز عن الكاثوليك ، ولم يضعفهم سوى مقاومة الدولة لهم ومناقشات القديس أوغسطين المفحمة . وزاد في إضعافهم ما فعلوه في عام ٣٩٠ م عندما عقدوا مجمعا دينيا قرروا فيه إعدام العالم النحوي الشهير تيكونيوس Tychonius لأنه اعترف بوجود قديسين بين الكاثوليك ، أدى هذا الحادث إلى وقوع انقسام بين صفوفهم . وفي عام ٤١١ م عقد القديس أوغسطين مجلسا للمناظرة بين الكاثوليك والدوناتيين ، حضره ٢٨٦ أسقفا من الكاثوليك ، ٢٧٩ أسقفا من الدوناتيين ، لكن المحاولة لم تحسم الخلاف .

صدرت تشريعات إمبراطورية لاضطهاد الدوناتيين عام ٤١٥ م زمن الإمبراطور هوزيوس ، حرمت عليهم عقد الاجتماعات ، وتضمنت مجموعة قوانين تيودسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠ م) تشريعات ضدهم فحددت المادة ٥٤ الغرامات التي يدفعها للتهمة بالدوناتية ، وتدرجت هذه الغرامات من مبلغ يعادل ٨٠٠٠ جنيه استرليني إلى ٢٥ جنيا وذلك بحسب مركز المتهم الاجتماعي ؛ كذلك حرم عليهم بيع وشراء وتوريث العقارات ، ودخول الأماكن العامة ، ومصادرة كنائسهم وأعضاؤها الكاثوليك (١) .

وهكذا كانت الكراهية على أشدها بين صفوف المسيحيين الرومان في أفريقية الرومانية عند دخول الوندال ، مما سهل مشروع الوندال الأفريقي .

الوندال فريق من الجرمان الشرقيين الذين أقاموا بصفة عامة خلال القرن الثاني الميلادي ، شرق نهر الألب ، Albis ، وانتشروا في المنطقة الفسيحة بين نهري الألب والقسستولا وبين البحر البلطي والبحر الأسود .

(١) Encycl. of Rel. & Ethics, Art. "Donatists"; Hodgkin, PP. 267-8;

بيتز : الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة مؤنس وزميله) ص ١٠٦
C. Med H. (Sh.), I, PP. 14-30; Ch.-André, PP. 213-18;

والمعروف منذ القرن الرابع الميلادي أن الجرمان عامة انقسموا إلى ثلاثة أقسام كبرى هي: الشرقيون والغربيون والإسكندناويون؛ وعلى حين بقي الإسكندناويون في بلادهم الشمالية، حيث تفرعت عنهم الأمم الحالية في السويد والنرويج والدانمارك، ارتحل أشقاؤهم من الشرقيين والغربيين، وزحفوا على أوروبا، حيث تكونت منهم الدول الأوربية الحديثة (١).

واشتهر الشرقيون بصفة خاصة، بكثرة استعدادهم عن غيرهم للنقلة وتغيير مساكنهم بحثاً عن أراضى أغنى وأخصب، وهم الذين حطموا الإمبراطورية الرومانية الغربية، قرب نهاية القرن الخامس الميلادي (٢).

ويدعى الوندال، كغيرهم من الشعوب القديمة، أنهم ينتسبون إلى أصول مقدسة، وجددهم الإلهى هو الإله هرمينو Hermino ابن الإله مانوس ; Manus ابن الإله تويستو Twisto (٣). وكتب مؤرخو اللاتين اسم الوندال بأشكال مختلفة منها : Vandili — Vandilü — Vanduli — Vandali أما مؤرخوا الأغريق فقد أشاروا إليهم بلفظي : Bandiloi, Bandeloi (٤). ويقال أن كلمة الوندال، مشتقة أصلاً من الفعل الألماني Wendeln بمعنى: يتجول

Barg, M. (C. Med. H.), Vol. I, PP. 183-185.

(١)

Hubert, H., Les Germains, PP. 15-32 ; Karsten, T.E., Les Anciens Germains, PP. 123-28 ; Lot, F., Les Invasions Germaniques, PP. 30-32 ; C. Med. H. (Sh.), I, PP. 38-39 ;

فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور العريفي ١

ص ١٦ .

(٢) طرخان : نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب - ٤٧٦ م (بحث نشر بمجلة

كلية الآداب جامعة القاهرة بالمدد التذكارى للمرحوم الأستاذ شفيق غربال - ١٩٦٢) ؛

Painter, S., History of the Middle Ages, PP. 18-20

(٣) تاكيتوس والشعوب الجرمانية (ترجمة وشرح الدكتور إبراهيم طرخان - مصر ١٩٥٩)

ص ٤٨ ؛ Lot, op. cit., PP. 31-32.

Gautier, E.F., Gensric, s ; Roi des Vannoles, P. 91.

(٤)

أو يرحل (١). وهم فرعان : الأسديون Asdingi والسيليون Silingae ؛
ويهمنا الفرع الأول بصفة خاصة ، لأنه الفرع الذي ينتمى إليه الملك جزريك ،
مؤسس دولة الوندال الجرمانية في شمالى أفريقيا الرومانى ، كما أن القوم الذين
قادم جزريك واستقر بهم المقام في شمالى أفريقيا ، هم من الفرع الأسدى .
أما المجموعة السيلية فلم تر أفريقيا ، وإلى هذه المجموعة الأخيرة ينتسب إقليم
سيليسيا ، لإقامتهم فيه فترة من الزمن ، ولعل هذا هو الأثر التاريخى الوحيد
الباقى لهذا الفرع ، وهناك من يقول أن سيليسيا مشتق من إسم العناصر الهيلية
أو الأيلسية Elysii or Helisii ولكن النسبة إلى الفرع السيامى أرجح (٢) .

على أن السيليين والأسديين (٣) ، لا يتميزون عن بعضهم البعض ، فسكلاهما
من الوندال ، وإنما هذه التسمية راجعة إلى اسم الأسرة الحاكمة التى اشتهرت فى كل
فرع ، وينتسب الملك جزريك إلى اسم الأسرة الأسدية ، كما انتسب ملوك القوط
الغربيين إلى الأسرة الباطية Balthings وملوك القوط الشرقيين إلى الأسرة
الأمالية Amalings وملوك الفرنجة الأوائل إلى ميروفنش Merovich ، ويقال
أن أسلاف الوندال القدماء هم الهاربون Harii أو الأريين Arii (٤) .

سكن الوندال بقرعهم ، أول الأمر ، فيما هو تقريباً براندنبرج وبومرانيا ، أى
فى الجزء الأوسط والشرقى من بروسيا ، وذلك زمن المؤرخ بلينى Pliny
(ت حوالى ١١٥ م) وللمؤرخ تاكيتوس Tacitus (ت حوالى ١٢٠ م) (٥) .

(١) Karsten, op. cit., PP. 217-18.

(٢) Thomson, op. cit., P. 246 ; Mattingly, H., Tacitus on Britain & Germany, P. 169.

(٣) إبراهيم طرخان : دولة القوط الغربية - مصر ١٩٥٨ . ص ٦٤٤٣٦ ؛ تاكيتوس
والشعوب الجرمانية فقرة (٤٣) ص ٩٤ ، ص ١٥٤

Gautier, op. cit. P. 92 ;

(٤) راجع : تاكيتوس والشعوب الجرمانية فقرة « ٢ » ص ٤٨ ؛

Karsten, op. cit., P. 218 ;

وكانوا في أول عهدهم التاريخي حلفاء للقوط الذين دفعوهم من مواطنهم الأصلية حول البحر البلطى، كما يقول المؤرخ القوطى جوردين Jodranes (ت في القرن السادس الميلادى^(١)). وبدأت حركات الوندال الأسديين، نحو الجنوب خلال القرن الثانى الميلادى، وظهر خطرهم لأول مرة حوالى عام ١٦٧ م، إذ حدث في ذلك العام، أن تحرك فرعان من القبائل الجرمانية هما: الماركومان والكوادى، ومعهما بعض القبائل الصغيرة من بينها الوندال^(٢). وصل الوندال إلى حدود بوهيميا، حيث تركوا اسمهم على الجبال التى تفصل بين سيليسيا وبوهيميا، ومن ثم عرفت باسم جبال الوندال Vandalici Mounes، وهى المعروفة حالياً باسم: Risen Gebirge^(٣)، ومعناها: الجبال الشاهقة. كان الوندال في حركتهم هذه بقيادة زعيمين هما: أمبرى Ambri وأسى Assi، واشتبكوا في معركة ضد جيرانهم اللومبارد، خرجوا منها مهزومين^(٤).

وكما ازداد ضعف الأباطورية الرومانية، كلما توغل الوندال جنوباً، فساروا نحو حوض الدانوب الأوسط، ضمن جموع الماركومان، ودفعوا أمامهم قبائل الإزايجيين Izayges البدو الذين اجتاحوا داكيا^(٥). وفي حوض الدانوب، انبرى الأمبراطور الفيلسوف ماركوس أورابوس M. Aurelius (١٦١ — ١٨٠ م) لحرب الوندال أولاً، وذلك عام ١٦٨^(٦)، وفي نهاية الحرب عقد مع فرع الأسديين منهم، هدنة، منحهم بمقتضاها سكناً في إقليم داكيا Dacia؛ ويقال أن الوندال كانوا في هذه الحركة الأخيرة بقيادة اثنين من

Hodgkin, op. cit., P. 214; (١)

Cary, M., A History of Rome Down to the Reigh of Constantine, P. 655. (٢)

Williams, H.S. (Edit.), The Historians History of the World, Vol. VI, P. 598. (٣)

Moss, H. St. L.B., The Birth of the Mid. Ages, PP. 47- 8; Hodgkin, op. cit., P. 214. (٤)

Cary' op. cit. P. 655. (٥)

Villari, op. cit., P. 69. (٦)

زعمائهم هما : راؤس Räus ورابتوس Rapetus . وظل الأمبراطور أورليوس يتردد على منطقة الدانوب حتى وفاته في قنذبونا (فيينا) في عام ١٨٠م ؛ ولما خلفه ابنه كومودوس Commodo (١٨٠ — ١٩٢ م) ، عقد هدنة مع الماركومان ، وحرّم عليهم الاعتداء على الوندال ، الذين أضحوا في حماية الرومان (١) .

ظل الوندال هادئين لفترة من الزمن في مقامهم المعترف به في داكيا شمالي الدانوب ، حتى استطاع الأمبراطور كارا كلا Caracalla (١٨٦ — ٢١٧م) أن يكتب إلى السناتو في إحدى رسائله عام ٢١٥م ، بأنه نجح في التفرقة التامة بين الوندال والماركومان ، وهم الذين كانوا في حلف معاً ضد الرومان ؛ غير أن الوندال ، وقد دأبوا على النقلة وعدم الاستقرار في مكان معين ، استأنفوا حركاتهم وعبثهم بأراضي الأمبراطورية ، حتى اضطر الأمبراطور أورليان Aurelian (٢٧٠ — ٢٧٥م) « معيد بناء الأمبراطورية » ، إلى حربهم وهزيمتهم في عام ٢٧١م ؛ لا نعلم شيئاً عن الموقعة ، ولكن الذي نعلمه هو المفاوضات التي أعقبت الموقعة ، إذ أرسل الوندال سفراءهم لطلب الصلح من الرومان ، ووافق الأمبراطور ، بشرط أن يرسل الوندال رهائن من أشرف بيوتهم ، من أبناء ملوكهم ونبلائهم ؛ تم الصلح وعاد الوندال إلى الاستقرار في داكيا ، حيث أمدهم الأمبراطور أورليان بالموثن الكافية ؛ وحرص الوندال على تنفيذ شروط المعاهدة ، وبلغ من شدة حرصهم ، أن ملك الوندال أصدر أمراً بأعدام كل وندالي يقوم بالتخريب في أراضي الأمبراطورية ، وجاء ذلك الأمر على أثر قيام نحو خمسمائة من مخربي الوندال واجتياحهم لأقليم مؤيسيا (٢) .

Hodgkin, op. cit., PP. 214-15.

(١)

(٢) أنظر الخريطة

Souttar' R., A short Hist .of Mediaeval Peoples, P. 327.

كان من بين شروط هذه المعاهدة، أن يقدم الوندال إلى الرومان في كل سنة :
ألفين من فرسانهم جنوداً معاهدين Foederati ، Leati أى auxiliaries ،
وذلك للخدمة في الجيش الروماني ؛ أوفى الوندال بهذا الشرط ، بدليل أن
سجلات الجيش الروماني في مطلع القرن الخامس للميلادى ، أشارت إلى أن :
« الجناح الثامن الوندالى الذى يعمل في مصر » ، وهو يتكون من ستائة فارس :
“Sub dispositione viri spectabilis comits rei militaris per
Aegyptum : Ala Octava Vandilorum Neae”.(١)

وهذا ما أتاح الفرصة أمام ستيليكو Stilicho الوندالى ، لأن يرقى إلى أعلى
المناصب الحربية في الإمبراطورية الرومانية الغربية ، بل إلى أن يتحكم فيها فترة
من الزمن (٢) .

وبعد ذلك بسنوات قليلة ، يبدو أن كان هناك قسم من الوندال السيليين
يتجول نحو الراين ، مع فريق من البرجنديين — الذين أشار إليهم المؤرخ بليفي
بأنهم فرع من الوندال — ، فتصدى لهم الإمبراطور بروبس Probus
(٢٧٦ — ٢٨٢ م) وأوقع بهم هزيمة كبرى ، أنجحت عن قتل الكثير وأسر
القليل ، وكان من بين الأسرى ايجيل Igil ، القائد الوندالى ، أرسل الإمبراطور
هؤلاء الأسرى جميعاً إلى بريطانيا في عام ٢٧٧ م ، ليقيموا فيها ، ويقال أن
الحصن الذى أقيم على تلال جوماجوج Gomagog بالقرب من كبردج ، بناه
أولئك الأسرى الوندال ، ولذا عرف باسمهم : Vandalbury (٣) .

وقرب نهاية حكم الإمبراطور قسطنطين الأكبر (٣١٣ — ٣٣٧ م) ، قامت
أزمة حول مصائر الوندال المقيمين في بعض أجزاء داكيا شمالي الدنواب ، ويجاورهم
من الغرب ماركومان بوهيميا ، ذلك أن نزاعاً شب بين القوط القاطنين شرقي

Hodgkin, op. cit.

(١)

Maritius, M. (C. Med. H.) Vol. I, P. 269.

(٢)

Stephenson, C., Mediaeval Europe, P. 51 ; Hodgkin, P. 217.

(٣)

الوندال ، وملك القوط يومئذ هو جبريك Geberic ، وبين الوندال ، وملسكهم المعاصر فيسومار Visumar ، انتهى ذلك الصراع بانتصار القوط وإبادة معظم الوندال وقتل ملكهم ، وذلك في الفترة ما بين ٣٣١ : ٣٣٧ م ، التمس الناجون من الوندال ، من الامبراطور قنسطنين ، أن يمنحهم موطناً جديداً داخل أراضي الأبراطورية ، وتعهدوا أن يكونوا رعاياه الأوفياء ، ويشبه هذا الموقف ، ما حدث للقوط يوم التمسوا مثل هذا الموطن خشية من بطش الهون فيما بعد (١) .

وافق الامبراطور قنسطنين ومنح الوندال وطناً في ولاية ، بانونيا Pannonia في وادي الدانوب ، وهي الحجر الحالية تقريباً (٢) ؛ وفي هذا الموطن الجديد ظل الوندال نحو سبعين سنة ، على طاعتهم للأمبراطورية الرومانية . وخلال هذه الفترة أخذ الوندال ببعض أهداب الحضارة الرومانية (٣) ، ومن غير شك اعتنقوا المسيحية على المذهب الأريوسي وكان جيرانهم القوط قد اعتنقوها بفضل المبشر القوطي أوليفلاس ، واستفاد الوندال من ترجمة أوليفلاس للإنجيل إلى اللغة القوطية ، حتى أنهم حملوا معهم هذه الترجمة عندما رحلوا بعد ذلك إلى أسبانيا (٤) .

ولما كانت الأمبراطورية الرومانية قد تدهورت زمن الامبراطور هونوريوس Honorius (٣٩٥ — ٤٢٣ م) ، وكان الهون Huns التتار ، قد غزوا ما هو الحجر الحالية ، قرر الوندال في عام ٤٠٦ م أن يبحثوا عن وطن جديد غير بانونيا (٥) ؛ فتحالفوا مع أشقائهم السيليين الذين كانوا يقيمون في ذلك الوقت مع البرجنديين في وادي نهر المين Maine ، وانضم إليهم السوييف الجرمان والألان

(١) دولة القوط الغربيين ص ٥١ ؛ وانفس المؤلف : القوط والإمبراطورية الرومانية حتى نهاية القرن الرابع الميلادي (المجلة التاريخية المصرية العدد السابع ١٩٥٨) - ص ٤٠ وما بعدها .

Souttar , op. cit., P. 327. (١)

Villari, op. cit., P. 96. (٢)

Gautier, op. cit., PP. 85-88 : Hist. History, P. 598. (٣)

Hodgkin, op. cit., PP. 217-218. (٤)

Lot, op. cit., P. 78. (٥)

Alani الأيرانيون ، وتحركت هذه الجموع نحو الشمال الغربي ، إلى الراين ، يريدون نهب غالة البلجيكية ؛ وفي ذلك الوقت كان ستيليكو الوندالي ، كبير مستشاري الأمبراطور هونوريوس ، قد اتهمه حساده ومناقسوه ، بأنه هو الذي دعا الوندال للهجوم على الأمبراطورية ، ويبدو أن هذه التهمة غير صحيحة (١) ، والأرجح أنه استعان بهم ضد الفرنجة في غالة (٢) .

ليست لدينا معلومات كافية عن القتال الذي شب بين الوندال وبين الفرنجة في غالة ، غير أنه عندما ظهر هؤلاء البرابرة على الشاطئ الأيمن للرين ، قرب مدينة ماينز في ديسمبر من ذلك العام ، لم يكن الرومان قوات كافية في شمالي غالة ، ولذلك عهد الرومان إلى أحلافهم المسيحيين المساهدين ، وهم مزيج من الفرنجة الجرمان ، بمحاربة الغزاة ، وانتهت الحرب بهزيمة الوندال (٣) ، وقتل ملكهم الأسدي جودجسكس Godigisclus أو Godegisel عام ٤٠٦ م وقتل معه نحو ألفين من رجاله ، ولم ينقذ الوندال من الإبادة سوى وصول أحلافهم من الآلان في الوقت اللائم . وهذا الملك القتييل هو أبو جزريك ، وكان لمصرعه على مشهد منه ، على يد الفرنجة ، أثره في الروح الإنتقامية التخريبية التي عرف بها جزريك بصفة خاصة (٤) .

عبر من نجا من الوندال نهر الراين ، ودخلوا غالة ، حيث ظلوا نحو ثلاث سنوات ينهبون في مدن الغال . وكان يلي أمر الوندال يومئذ الملك جونثريك Guntheric ابن القتييل وأخو جزريك ، قاد هذا الملك قومه وأحلافه من السويف والآلان ، في عام ٤٠٩ م ، وتحرك بهم نحو الجنوب ، بحثاً عن جو صحو

(١) Hist. History, op. cit., P. 598 ; Pienne, H., A History of Europe from the Invasions to the 16th century, (Lond.), 1936), P. 28.

(٢) Hodgkin, PP. 219-220.

(٣) Lot, op. cit., PP. 79-80.

(٤) Gautier, op. cit., PP. 99, 111.

شمس ، وهو الجو الذي طالما أغرى البرابرة ، وكان له أثر كبير في تحركاتهم .
ووصلت هذه الجموع إلى جبال البرانس وأخذت تقرع أبواب أسبانيا في الفترة
ما بين ٢٨ سبتمبر ، ١٣ أكتوبر من عام ٤٠٩م ، وبدا عجز القوات الإمبراطورية
الرومانية ، فلم تفلح في ردها أو مقاومتها (١) .

دخل الوندال وأحلافهم أسبانيا ، عن طريق بوردو إلى بامبلون (بنبلونه)
ثم تتبعوا الطريق الروماني الكبير إلى براجا (برغش) وليون وزامورة وسلامنكة
(طلمنكة) فماردة فأشبيلية (٢) . وقد تبع الوندال وأحلافهم ، إلى أسبانيا ،
برابرة آخرون ، هم القوط الغربيون ، بقيادة ملكهم آتولف ، وحاربوا الوندال
باسم الرومان ، ومن أجل مطامعهم الشخصية ، وهزموهم أكثر من مرة ، حتى
قيل : إن الوندال ليسوا محاربين من الدرجة الأولى (٣) . وأدى هذا الصراع إلى
تخريب الولايات الخصبية المثمرة ، مما أضر بالمنتصر والمهزوم على السواء ، بل لقد
بلغ الأمر بالجيش الوندالي ، أن كان يشتري مكيال الدقيق بما يعادل نحو ٣٦ شلنًا ،
ويقال ، إن أمما وندالية ذبحت أطفالها وأكلتهم (٤) .

لم يكن أمام الإمبراطور هونوريوس ، إلا أن يعترف بالأمر الواقع ، ويذكر
المؤرخ بروكبيوس Procopius أن الإمبراطور عقد مع الوندال ما يشبه الهدنة
أو المعاهدة ، سمح لهم بمقتضاها ، أن يقيموا في أسبانيا بشرط ألا يقوموا بنهب
أو تخريب أو اعتداء (٥) . وهكذا استقر الوندال بفرعهم السبلي والأسدي ،
في أسبانيا ، فاستوطن الفرع الأسدي منطقة غاليسيا Golloecia في الشمال

(١) Deanesly, op. cit., P. 75 ; Villari, op. cit., P. 96 ; Kaisten, op. cit.,
219 P. Davis, R.H.C., A Hist. of Mediaeval Europe (Lond., 1957), P. 23;
Boussonnade, P., Life & Work in Mediaeval Europe, (Lond.), 1937),; PP.
15-16.

Gautier, P. 102 ; Souttar, P. 327. (٢)

Villari, op. cit. P. 96 ; Schmidt, op. cit., P. 304. (٣)

Hodgkin, P. 221. (٤)

Hist. History, P. 598. (٥)

الغربي ، و بجوارهم السوييف (١). أما الفرع السيلي فأقام في منطقة بايتيكا Baetica وهي التي عرفت باسم الوندال ، فصارت « الأندلس » وهنا من المؤرخين من يشك في نسبة الأندلس إلى الوندال ، ويقول إن كلمة الأندلس Andalusia أو Handalusia ، ليست سوى الصيغة العربية لكلمة هسپريا Hesperia التي أطلقها المغاربة أصلاً على كل أسبانيا (٢). والراجح أن الأندلس نسبة للوندال الذين أقاموا فيها فترة من الزمن . أما العناصر البربرية الأخرى التي صحبت الوندال في اقتحامهم أسبانيا ، أو جاءت في أعقابهم ، فهي الآلان الإيرانيون الذين أقاموا في البرتغال ، والقوط الغربيون الجرمان الذين استقروا في الشمال الشرقي من أسبانيا (٣) .

وحدث في عام ٤١٦م أن قبض الضابط الروماني قنسطانطيوس (٤) . على فريديبال Fredibal ملك الوندال السيلين ، بطريقة خادعة ، وأرسله إلى الأمبراطور هونوريوس ، واحتفل هونوريوس بهذا النصر في العام التالي ، وسبق الأسير أمام عربة الأمبراطور في موكب النصر . والواقع أن الخطر الحقيقي الكامن على الوندال في أسبانيا ، لم يكن من جانب الأمبراطورية الرومانية

(١) نظر الاستقرار السوييف في غاليسيا ، وهي التي عرفها العرب باسم « جليقية » ، عرف السوييف كذلك ، في الكتب العربية ، باسم « الجلالقة » .

(٢) Hodgkin, P. 223, N. I ; Hartmann, R., Art. 'Andalusia'

(٣) راجع دولة القوط الغربيين ص ٨٥ - ٩٣ . (Encycl. of Islam).

(١) القائد قنسطانطيوس ، شجاع مظفر ، خدم الإمبراطور هونوريوس ، تزوج من بلاسيديا Balcidia أخت الإمبراطور وإبنة تيودسيوس العظيم : وذلك على كره منها ، تم الزواج عام ٤١٧ عقب عودتها من بلاط القوط الغربيين حيث كانت أسيرة ، بعد أن كانت متزوجة من أتولف ملك القوط الغربيين ، الذي أحبته ، وأعيدت عند ما تم تبادل الأسرى . وزواج قنسطانطيوس منها صار تريكاً للإمبراطور في الحكم باسم قنسطانطيوس الثالث ، ولكنه لم يلبث أن مات بعد أن أنجبت له ولداً ، هو الذي صار الإمبراطور فالنتينيان الثالث وهو طفل بوصاية أمه بلاسيديا ، ولهذا السيدة الوصية أثرها الكبير في دعم التعاون بين بلاط القسطنطينية وبلاط رافنا ، وكذلك في ضياع أفريتيمة الرومانية على يد الوندال بسبب سوء تدبيرها . Hist. History, P. 572 ; Schmidt, op. cit., PP. 275-599 .

المنهارة ، وإنما جاء من ناحية القوط الغربيين ، وملكهم يومئذ واليا Wallia (٤١٥ — ٤٢٠ م) ؛ ففي عام ٤١٨ م ، قضى القوط نهائياً على الوندال السيلين في الأندلس ، كما قضوا على الآلان في البرتغال ، واستطاع من نجا من الآلان ، أن يفر إلى الوندال الأسديين في غاليسيا حيث اندمجوا فيهم ، حتى أضحي ملك الوندال في غاليسيا يعرف باسم « ملك الوندال والآلان » Rex Vandalorum et Alanorum (١) .

وفي الحرب التي شب أوراها في غاليسيا عام ٤١٩ م بين السوييف من جانب ، وبين الوندال الأسديين وحلفائهم الآلان من ناحية أخرى ، انتصر الوندال بقيادة ملكهم جونديريك ، فهرب ملك السوييف هرمانريك Hermanric بقومه أمام بطش الوندال ، وانحازوا إلى منطقة اشتوريا الجبلية في أقصى شمالي أسبانيا (٢) . فتعقبهم الوندال وحاصروهم ، ولم يرفع الوندال حصارهم إلا عندما تدخل الكونت استوريوس Asterius الحاكم الروماني في أسبانيا ؛ استجاب الوندال وتركوا السوييف ، لكنهم توجهوا مباشرة إلى منطقة بايتيكا (الأندلس) في الجنوب ، واستقروا فيها في ذلك العام (٤١٩) ؛ أي أنهم حلوا مكان أشقائهم السيلين السابقين ، ويحتمل أنه كان في هذه المنطقة قلة باقية من السيلين ، لم تلبث أن اندمجت وذابت في الأسديين (٣) . وذن هذا المكان بدأ الوندال يتطلعون إلى البحر الأبيض والمحيط الأطلسي ، كما بدأوا يجهلون بالعظمة البحرية .

غير أن بلاط رافنا لم يقف مكتوف الأيدي أمام تقدم الوندال السريع الظافر في أسبانيا ، فقرر في عام ٤٢٢ م ، وهي آخر سنوات حكم الإمبراطور هونوريوس ، المغلوب على أمره ، أن يقوم بتحرير بايتيكا ، وانبرى لهذا

Gautier, PP. 103-105.

(١)

Gibbon, Ed., Decline & Fall of the Roman Empire, (Lond., 1954), III, P. 328.

(٢)

Hodgkin, P. 224.

(٣)

المشروع القائد العام للجيش الرومانية ، وهو قسطينوس Castinus ، وكان القوط الغربيون يساعدونه في حرب الوندال ، وكاد قسطينوس ينتصر ، لولا الانقسام الذي مزق هيئة القيادة الإمبراطورية ، مما أغضب بونيفاس Bonifacius وهو الذي يلي قسطينوس في القيادة العامة ؛ ورغم أنه أشجع ضباط الإمبراطورية.

ورغم أن بونيفاس أشجع قادة الإمبراطورية ، وأكفاً من رئيسه ، إلا أنه لم يحتمل غطرسة قسطينوس ، فانسحب في هدوء وعبر إلى أفريقية ، التي وليها فيما بعد من قبل بلاسيديا وابنها فالنتينيان الثالث^(١) . ومع قيام هذا الانقسام ، انتصر قسطينوس في أول الأمر على الوندال ، وحاصروهم في إحدى مدن بايتيكا ، حتى قاسوا من الجوع ، وكانوا على وشك الاستسلام ، لولا حماقتهم وتسرعهم في الدخول في معركة مع قوم جياع ، وذلك في الوقت الذي خدعه فيه حلفاؤه من القوط ، فانهمزم هزيمة منكرة وفر إلى طركونه Tarragona^(٢) .

لم يقنع الوندال بمنطقة بايتيكا كدولة لهم ، بل أخذوا على أثر انتصارهم على الرومان ، يغيرون على البلاد والموانئ ، فنهبوا ميناء قرطاجنة الجديدة بأسبانيا ، كما نهبوا أشبيلية ، ودمروا ولاية طركونة ؛ وتعقب الوندال ضحاياهم من الأسبان الذين هربوا لاجئين إلى جزر البليار ، فاستولوا على هذه الجزر عام ٤٢٥ م ، وتشمل جزر البليار : ميورقه Majorca ومينورقه Minorca ويابسة . ومن المحتمل أن الوندال استولوا على بعض السفن في الموانئ التي استولوا عليها ؛ وبهذا

(١) على أثر وفاة الإمبراطور هونوريوس في عام ٤٢٣ م قامت مشكلة حول ولاية العرش ، فهناك فالنتينيان الثالث بن بلاسيديا ، وعمره ٤ سنوات ، يعيش مع أمه منفياً في القسطنطينية ، ومعنى توليته تدعيم الصداقة بين الشرق والغرب ، وهذه أمنية عزيزة للحزب المنادي بتوليته ، ولكنها تؤدي في نفس الوقت إلى منافسة ونزاع مسلح بين الأوصياء ، نظراً لصغر سنه . والرأي الثاني انتخاب إمبراطور من غير الأسرة الإمبراطورية ، وهذا ما يزكيه قسطينوس القائد العام في الغرب ، نجح هذا الرأي وتولى حنارتيس الموثقين ، وهو رجل بيروقراطي مجرب ، ولكنه آلة في يد القائد العام (C. Med. H. (Sh.), I, P. 88).

Gibbon, op. cit., PP. 328-29.

الوضع الجديد ، تحول الوندال إلى أعمال القرصنة في البحر ، بل امتدت غزواتهم إلى ولاية مرطانية Mauritania الأفريقية ، عبر الزقاق (١) . ولكن يبدو أنه لم يكن لهم هدف واضح يومئذ في الاستقرار على ساحل أفريقية الشمالى .

* * *

وبعد أن استقر الوندال « معاهدين » فى أسبانيا نحو عشرين سنة ، من ٤٠٩ إلى ٤٢٩ م . حان الوقت الذى اضطر فيه الكونت بونيفاس حاكم أفريقية الرومانى (٤٢٢ - ٤٣٢ م) إلى دعوتهم إلى أفريقية .

وتفسر ذلك : أن الأمبراطور تيودسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠ م) ، أمبراطور القسم الشرقى من الأمبراطورية الرومانية . صمم على إحياء الأمبراطورية الرومانية بشطريها ، وتوحيدها تحت سيادته ، فأرسل جيشاً ، تحت إمرة أقدر قواده ، وهما أردا بوريوس Ardaburius الآلانى وابنه أسبار Aspar وتلخص مهمة هذا الجيش فى طراد الأمبراطور « حنا الموثق » الذى عينه قسطنطينوس وتولية فالنتينيان الثالث ابن عمته بلاسيديا . تحمس تيودسيوس لهذا المشروع وكاد يتولى قيادة الجيش بنفسه ، لولا نصيحة الأطباء له رعاية لصحته (٢) . نجح الجيش فى القضاء على حنا وقتله عام ٤٢٥ وكان المتحكم فى القسم الغربى من الأمبراطورية آنذاك ، القائد العظيم أيتيوس Aëtius ؛ فلما رأى انتصار جيش الشرق ، اقتنع بما تم ، رغم أنه كان من أنصار حنا ، وأنجده بنحو ٦٠ ألف من مرتزقة الهون . قبل أيتيوس أن يتولى منصب القيادة العامة فى الغال بلقب « كونت » ؛ وتمت مراسم تتويج فالنتينيان الثالث فى عام ٤٢٤ م فى إيطاليا ؛ والملاحظ ، أن تيودسيوس الثانى ، رأى ألا يرهق نفسه بتحمل أعباء الغرب ومشاكله ، فضلاً عن أخطار البرابرة المحذقة به فيما وراء الألب ، ولذلك اطمأن

Deanesly, op. cit., P. 76 ; Lot, op. cit., P. 87.

(١)

Hist. History, P. 573.

(٢)

بولاية ابن عمته ، وزوجه من ابنته فيما بعد ؛ وحكم فالنتينيان الثالث من ٤٢٥ م إلى ٤٥٥ م (١) .

وفي نظير جهود الأباطور تيودسيوس الثاني في تولية فالنتينيان الثالث ، تنازلت الأباطورية الغربية له عن إقليم الليريا الغربي ؛ ومعنى هذا ، انضمام دالماتيا البحرية الغنية ، وكذلك تنازلت الأباطورية الغربية عن بانونيا ونوريكوم للأباطورية الشرقية . ولما كان عمر فالنتينيان الثالث عند ولاية العرش ، ست سنوات ، فقد قامت أمه بلاسيديا وصية عليه بلقب أوغسطا Augusta ؛ وبجانبا فيليكس Felix القائد العام لجيوش الأباطورية في الغرب (٤٢٦ — ٤٣٠ م) .

والمعروف عن بلاسيديا الوصية ، أنها تحكمت في الأباطورية الغربية باسم ابنتها مدة ربع قرن من الزمان ، واشتهرت بالحقد وسوء التدبير والعجز عن سياسة الأباطورية ، على عكس زوجة ابنتها يودكسيا Eudoxia التي زانها العقل وجملتها العبقرية (٢) .

وبالإضافة إلى سوء القيادة العليا وعجزها ، كانت القوة الحربية الرومانية في الغرب ، وقد وصلت إلى درجة كبيرة من التدهور والانحلال ، وغدا الاعتماد الأساسي فيها على المرتزقة من البرابرة (٣) . وأبرز شخصيتين في القيادة العسكرية في ذلك الوقت هما : أيتيوس وبونيفاس ؛ أما شخصية البطريق فيليكس ، فلم تكن شيئاً مذكوراً بالقياس إلى شخصيتي ايتيوس وبونيفاس ، وهما اللذان نظر إليهما باعتبارهما آخر الرومان . كان تعاون هاتين الشخصيتين أمراً هاماً

Villari, op. cit., PP. 91-92.

Hist. History, P. 574 ; Benthelot, M.A., Le Monde Barbare, L'Ivasions. (Hist. Générale) T. I, P. 66.

Katz, S., The Decline of Rome; & the Rise of Med. Europe, (New York, 1955) PP. 74-75 ; Mott, G.F., & Dee, H.M., Middle Ages (New York, 1952). PP. 7-11 ; Boissonnade, op., cit., PP. 14-17.

(١)

(٢)

(٣)

من أجل انقاذ الإمبراطورية ، غير أن منافستهما وانقسامهما ، كانا السبب المباشر في فقدان أفريقية ، فضلاً عن تمزيق الإمبراطورية برمتها .

أخذ أيتيوس يتقرب من بلاسيديا وابنها ، ويوطد صداقته مع القصر الإمبراطوري في رافنا ، مظهراً ولاءه وإخلاصه ، ولما كانت بلاسيديا ضعيفة التدبير وسيئة التقدير ، فقد خضعت لرغبات أيتيوس ، ودسائسه ضد غريمه ومنافسه بونيفاس ؛ وذلك على الرغم من ولاء بونيفاس للأسرة الإمبراطورية ، بدليل أنه لم يقف موقف المتفرج إبان محنة بلاسيديا وإبنا حين كانا منفيين بالقسطنطينية ؛ وضع بونيفاس قوات أفريقية وأموالها في خدمة بيت تيودسيوس العظيم ، وقع أيضاً — الإمبراطور حنا المعتصب ، على حين كان حنا يلقي التأييد والمساعدات من جانب أيتيوس وأحلافه من الهون^(١) . ولكي يحكم نسيج مؤامراته ، بعث في الخفاء إلى بونيفاس ، ينصحه^(٢) . بعدم الاستجابة إلى أمر الإمبراطورة .

أما أحوال بونيفاس ، « كونت أفريقية » في ذلك الوقت ، فكانت متطورة ، إذ حدث عقب وفاة زوجته الكاثوليكية ، أن رغب في التفرغ إلى العبادة والنسك وترك خدمة الدولة ، بعد أن نجح في حماية ولايته من غزوات للغاربة ، غير أن صديقه القديس أوغسطين ، نصحه بالبقاء في خدمة الدولة ، فتزوج من وارثة أسبانية ثرية ، ولكنها على المذهب الأريوسي ، وانصرف إلى اللهو ببعض الوقت ، وأهمل شئون ولايته ، فتجددت اعتداءات المغاربة ، حتى أن القديس

(١) أيتيوس بن جودنتيوس Gudentius الإسكثي الأصل ، وقائد الفرسان في الإمبراطورية الغربية ، وأمه نبيلة إيطالية ، ومنذ كان أيتيوس شاباً ، وهو يعمل في الجندية ، وكان من بين الرهائن الذين قضوا وقتاً طويلاً في معسكرات الهون حتى تكونت صداقة بينه وبينهم (Villari, P. 92 ; Gibbon, P. 326, N. 4 ; Lot, La Fin du Monde Antique et le Debut du Moyen Age, (Paris, 1951), PP. 239-40 ; Souttar, op. cit., PP. 212-15 ; Benthelot, op. cit. P. 69

Gibbon, P. 328 ; Hist. History, P. 575 ; Villari, P. 91.

أوغسطين بعث إليه برسالة ينبهه فيها إلى العناية بواجباته (١). استدعته الأمبراطورة بلاسيديا إلى إيطاليا في عام ٤٢٧ م ، فرفض إطاعة الأمر ، فجاءت الجيوش الأمبراطورية لتجبر بونيفاس على الطاعة والولاء ، لكنه هزمها وشتتها ، ثم جاءت حملة أخرى بقيادة قوطي يعرف باسم سيجسفولت Sigisvult ، فاستطاعت هذه الحملة أن تنتصر عليه وتستولي على قرطاجنة العاصمة ، وعلى هيبو ، مركز أسقفية القديس أوغسطين (٢) .

ويبدو أن بونيفاس رأى ألا طاقة له بجيوش الأمبراطورية ، التي لا شك تفوق ماتحت يده من قوات في أفريقية ، فتمسك اليأس فضلاً عما اعتلج في نفسه من صراع عنيف ، بين الولاء للأمبراطورية والانتقام منها ، إذ لا يزال يشعر بخيبة أمل عندما لم يعين في منصب القيادة العامة بعد قسطينوس ، وهو الذي خلفه فيليكس بعد القضاء على حنا وأنصاره وتولية فالنتينيان الثالث ؛ كذلك يبدو أنه بدأ يتطلع في نفس الوقت لأن يصير الحاكم بأمره على أفريقية الرومانية بمساعدة الهرطقة الموترين من الأريوسيين وغيرهم .

وبعد تردد طويل ، بعث بسفير من من قبله إلى معسكر الوندال في أسبانيا يدعوهم إلى أفريقية ، وذلك في عام ٤٢٨ م . ويحتمل أن مبعوثه إلى الوندال هو نفس القائد القوطي سيجسفولت (٣) .

كان يتزعم الوندال في ذلك الوقت قسيان في الساطة هما : جوندريك وأخ غير شرعي له هو جزريك ؛ ويقال إن رسالة بونيفاس إلى الوندال كانت تتضمن اقتسام السلطة في أفريقية بين ملكي الوندال وبين بونيفاس ، لكن يشك في صحة هذا الخبر ، لأنه لم يرد في مرجع سوى ما كتبه بروكبيوس

(١) يوجد بعض أجزاء من هذه الرسالة في : Villari, P. 94.

(٢) Gibbon, P. 328 ; C. Med. H. (Sh.), I, PP. 89, 90 ; Lot, P. 88.

(٣) C. Med. H. (Sh.), I, P. 90 ; Hodgkin, P. 246 ; Hist. ;History, PP. 575-76 ; Souttar, P. 327 ; Berthelot, op. cit., P. 68.

Procopius ، وهو ليس مرجحاً أصيلاً لهذه الفترة . مات جوندرىك ، وانتخب الوندال جزرىك ملكاً عليهم ، وحام الشك حول موت أخيه جوندرىك ، وهل لجزرىك دخل فى ذلك ؟ والراجح أن وباء انتشر فى جيش الوندال قبيل الغزو الأفريقى ، وكان جوندرىك من بين ضحاياه (١) .

والواقع لم يكن الوندال بحاجة إلى مثل هذا الاستدعاء من جانب بونيفاس لغزو أفريقية ، فقد أضحت الوندال قوة بحرية مخيفة ، وهناك ثراء أفريقية ومطامع الوندال واحلامهم فى تكوين دولة مترامية الأطراف ، فلم يقنعوا بحدود باتيكا كدولة لهم . وأحوال أفريقية فى غاية الملاءمة لتنفيذ مشروعهم التوسعى ، فقيا الانقسام المذهبى بين الدوناتيين والكاثوليك ، والحروب الأهلية فيها وغزوات المغاربة المستمرة فضلاً عن الحروب والصراع فى إيطاليا نفسها وفى بلاط رافنا (٢) . لذلك لم تكن رسالة بونيفاس سوى عامل من عوامل التنفيذ الفورى دون إبطاء .

انفرد جزرىك بالسلطة على الوندال عام ٤٢٨ م ، وظل نحو خمسين عاماً ، عد خلالها أقوى وأشهر شخصية فى أوروبا ، باستثناء فترة بروز أتىلا الهونى القصيرة (٣) . كما كان بطل الوندال ، والعدو الرهيب لروما والقسطنطينية . كتب اسم جزرىك بأشكال مختلفة ، فكتاب القرن الخامس للميلادى أمثال ايداتيوس

(١) انتشرت إساءة بعد هذه الفترة بنحو قرن ، مؤداها ، أن جزرىك قتل أخاه ليتفرد بالحكم ، كما أتبع مقتل بليد Bleda على يد أخيه أتىلا الهونى ؛ وكان بروكبوس هو الذى أشاع هذه الشائعة : ثم نفاها بقوله : إن الوندال لا يصدقونها . وذكر كذلك أنه سمع من بعض الوندال ، أن جوندرىك وقع أسيراً فى أيدي أعدائه من جرمان أسبانيا ، وأنهم أعدموه صلباً ، أما المؤرخ ايداتيوس Idatius المعاصر ، فيربط موت جوندرىك بحادث تدنيس مقدسات أشبيلية ، على أثر استيلائه على هسباليس Hespalis ، وهى أشبيلية ، إذ اعتدى على كنيتها ، ولكنه سرعان ما هلك على يد مارد أو شيطان . (Hodgkin, PP. 226-27)

Villari, PP. 94-95.

(٢)

Lot, Les Jnasions, P. 87

(٣)

Idatius الأسباني ، وبروسبر ؛ Prosper الأكويتاني وغيرهما ، كتبوه بهذه الصيغة Gaisericus ويقرب منها الصيغة التي استخدمها المؤرخ القوطي جوردين Jordanes ، والمؤرخ البيزنطي بروكبيوس ، من مؤرخي القرن السادس الميلادي ، وهذه الصيغة هي Gaizerichus ؛ وكتبه غيرهم Gesericus, Gensericus وهكذا . ويبدو أن مرجع هذا الاختلاف الشكلي ، هو أن مثل هذه الصيغة كان شائع الاستعمال في بيزنطة . ورغم أن أغلب المراجع يكتبه «جنزريك» إلا أن الباحث الألماني فريدلندر Friedländer وهو الذي كتب عن المسكوكات الوندالية ، يفضل استعمال Gaisericus ، ويفسر هذه الكلمة بأنها مشتقة من كلمتين : Gais بمعنى « رمح » Reiks ، بمعنى « ملك » (١) .

أقترن اسم هذا الملك دائماً بالتدمير والتخريب ، والفرع للأمبراطورية الرومانية . ورغم ما قاساه الوندال من محن وهزائم متلاحقة ، سواء منذ كانوا في مورافيا ، أو أمام الفرنجة على ضفاف الراين ، أو أمام القوط الغربيين في أسبانيا ، مما يدل على أنهم لم يكونوا محاربين من الدرجة الأولى مثل جيرانهم البرابرة ، وهذا ما يؤيد وجهة النظر القائلة بهمجيئتهم (Varbaricum) ؛ رغم هذا ، فإن هذه الصفة لم تلتصق بهم خلال حياة جزريك الطويلة ، فهو يمتاز بعقل جبار، وشجاعة منقطعة النظير، بثت في الوندال روحاً جديدة . حقيقة أنه كان قاسياً وحشياً ، إذا ما قيس بأقرانه من ملوك البرابرة الذين صار مصيرهم خيراً من مصيرهم أمثال الأاريك وآتولف من ملوك القوط الغربيين . هذا ويفترق جزريك عن أي زعيم من غزاة الشماليين في أنه لم يدانه أحد منهم في شدة نهمه للكسب والغنيمة ؛ وباستطاعته أن يكون صادق الحدس والتقدير لموارده وموارد أعدائه ،

(١) Halphen L. Les Barbares (Paris 1926). P. 38 ; Hodgkin P. 227
Gibbon P. 329.

وأن ينسج خيوط المحالفات السياسية لصالحه وصالح شعبه ، ولديه مقدرة فائقة على تكييف الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق أهدافه المحددة ؛ وقد ظل الناس يتحدثون عنه بعد وفاته بقرن من الزمان ، باعتباره أمير الرجال ، ويشبهه من بعض الوجوه ، صنوه الأريك التيوتوني أو البروسي ، الذي استولى على المدينة الخالدة في العالم اللاتيني . ويقول بعض الكتاب : « إذا كان أتيليا هو نابليون القرن الخامس الميلادي ، فأحري بجزريك أن يكون بسمارك ذلك القرن » (١) .

يصفه المؤرخ القوطي جوردين بأنه يعرج في مشيته ، نتيجة وقوعه مرة عن جواده ، وبسبب مذابحه في الرومان ، ذاع صيته في العالم ، ثم هو قليل الكلام عميق التفكير ، عزوف عن الترف لأنه يرى فيه تشبهاً بأمه ذهبت ريجها (٢) . تمتلئ بالأهداف البعيدة لتحطيم الشعوب ، وعلى الأبهة دائماً لأن يبذر بذور الخصاص والشحناء بين أعدائه ، وأن يفيد من نتائجها .

وفي نظر مالكوس Malchus الأديب البيزنطي أن تغيراً خطيراً ألم بالوندال بعد جزريك ، أعظم ملوكهم ، فقد استهدفوا لكل أنواع الاضطراب والتدهور والانحطاط ، فضلاً عن الميوعة أو التخنث ، ولم تعد لديهم تلك القوة التي كانت لهم ، وفشلوا في الاحتفاظ بقواتهم الضاربة ، تلك التي حرص جزريك على أن تكون معدة دائماً لأي مشروع ، مما جعله أسرع في الانقضاض على عدوه قبل أن يهيء نفسه للدفاع أو الهجوم .

سخر جزريك جميع موارده ، وقد دبرها أحسن تدبير ، لهدفين كبيرين هما : إذلال الإمبراطورية الرومانية والقضاء على المذهب الكاثوليكي . ويفسر الأسقف الأسباني إيداتيوس كراهته الشديدة للكاثوليكية أن جزريك كان أريوسياً ، وإذا صح هذا ، فإن أساس هذه الكراهة يرجع إلى أنه ابن سرية

Hodgkin P. 229 , Gautier PP. 110-114.

(١)

Historian's Hist. P. 576 ; Villan PP. 96-7.

(٢)

أو محظية أسبانية أو غالية ، فنشأ في فجر حياته على مذهب أمه ، لكنه سرعان ما جحد هذه العقبة وارتد عنها واعتنق الأريوسية مذهب أسلافه العسكريين (١).

وفي شهر مايو من عام ٤٢٨ م ، حشد جزريك كل شعبه من الوندال والآلان الخاضعين له ، على ساحل الأندلس المقابل للزقاق — وهو مضيق جبل طارق — استعداداً لتلبية دعوة الكونت بونيفاس ، غير أنه علم قبيل رحيله بأن عدوه هرمجاريوس Hermigarius ملك السويف ، يقوم بتخريب وتدمير بعض الولايات الواقعة بالقرب من خط سير جزريك ، وأنه سوف ينقض على أملاك الوندال في الأندلس ، فعاد مسرعاً على رأس فرقة منتخبة من رجاله ، وتعب ملك السويف وأنزل به هزيمة ساحقة ماردة وذبح كثيراً من السويف ، ولكن هرمجاريوس تمكن من الهرب ممتطياً صهوة جواده السريع ، الذي قيل فيه أنه أسرع من الرياح الشرقية ، غير أنه لم يلبث حتى غرق في نهر جوديانا Guadiana ؛ وعلق رجال الدين في ماردة على غرقه على مشهد منهم ، إن موته عقاب من السماء بسبب إهائته السابقة لزعميتهم القديسة ولاليا Eulalia ، وهي إحدى الأطفال الذين استشهدوا زمن الأباطور دقلديانوس (٢).

وبعد أن ألقى هذا الدرس القاس على السويف ، عاد على الفور إلى ساحل البحر ، ليعبر إلى أفريقية ؛ ولكي يطمئن إلى سهولة عبور قومه في أمن ونظام ، قام بإحصاء جميع الذكور من الوندال « من الشيخ المسن إلى الطفل الوليد »

Gautier op. cit. PP. 110-117.

(١)

(٢) عرفت القديسة ، بأنها من أجل الشهيدات العذارى ، بين زميلاتهما اللاتي أقيمت لهن تمثاليل في كنيسة القديس أبو الليناري Apollinare في رافنا ، ونسبت كرامات إلى هذه القديسة ، منها إنقاذ رافنا من تخريب تيودريك الثاني ملك القوط الغربيين في عام ٤٥٦ م .

ووجد أن عددهم ٨٠ ألف ، ويبلغ المحاربون منهم نحو ٥٠ ألف ، وعبأ جيشه ، ووضع على رأس كل ألف مقدماً Chiliarch . وكان بونيفاس قد أعد السفن اللازمة لنقل الوندال عبر المضيق (١) .

والملاحظ أن أفريقية وأسبانيا ، مرتبطتان معاً ، منذ أقدم العصور ، فكلماتها نقطة وثوب على الأخرى ، ففي التاريخ القديم والوسيط ، اتخذت الغزاة أفريقية مركزاً للوثوب على أسبانيا ، هكذا فعل الفينقيون قديماً ، ومن بعدهم العرب في العصور الوسطى ؛ وكذلك كان الشأن بالنسبة لأسبانيا ، كما فعل الوندال (٢) ؛ إذ بدت إفريقية للوندال ، كما بدت ملوك القوط الغربيين من قبل — زمن الأريك ت ٤١٠ — إنها الملجأ الأمين الدائم (٣) .

أبحر الوندال من الميناء الذي عرف فيما بعد باسم ميناء طريف ، في مايو ٤٢٩ م ، ونزلوا بساحل موريتانيا ، وهي أقرب مناطق شمالى إفريقية إلى أسبانيا ؛ وعلى الرغم من وجود اثنتي عشرة فرقة من المشاة الرومان ، وتسع عشرة فرقة من الفرسان ، فإن الاضطراب والانقسام بينها ، كل ذلك أعجزها عن حماية أفريقيا ، بل أن هذه الفرق كلها ، لا تعدل في قوتها وروحها ، فرقتين فقط من الجيوش الرومانية زمن يوليوس قيصر .

والمعروف ، أن حدود موريتانيا المتأخرة للصحراء والمحيط الأطلسي ، كانت محاطة بقائل متوحشة قوية تشتعل حقدًا وكراهية للرومان ، وتتحين الفرصة للانتقام ، هؤلاء هم المغاربة البدو ، وصل بعض المغاربة منهم إلى قرب الساحل ، حيث شهدوا معسكر الوندال ، ولا بد وأنهم شعروا بالخوف والفرع والدهشة من هذا الغازي الجديد ، الذي يتميز بزى معين وسلاح خاص ، وتقدم حربي فريد ،

Davis op. cit. PP. 21-22.

(١)

Bury op. cit. P. 89.

(٢)

Lot Les Invasions... P. 88.

(٣)

فضلاً عن صفاتهم الجثمانية التي بدت لهم ، كالشقرة وزرقة العيون ، على عكس الأفريقيين الذين أكسبهم المناخ الإفريقي لوناً زيتونياً ؛ وبعد إزالة بعض الصعوبات الخاصة بجهل الفريقين ، كل بلغة الآخر ، رحب المغاربة بالتحالف مع الوندال ، أعداء الرومان ، دون ملاحظة أو إدراك لأي نتائج في المستقبل ، وسرعان ما اندفع عدد كبير من هؤلاء الوطنيين من وديان وغابات جبال أطلس ، فقد حانت الفرصة للانتقام من جلادهم ؛ ولعل في هذا الترحيب ، ما يشبه ترحيب الأقباط المصريين بالفاتحين العرب المسلمين ، فراراً من ظلم البيزنطيين وإضطادهم لهم ، والقياس مع الفارق (١) .

لأننا نعلم كثيراً عن تفاصيل فتوحات الوندال الأولى في شمال إفريقيا ، عقب نزولهم ، وكل ما نستطيع أن نقوله أنه في أوائل عام ٤٣٠ م كان شمال إفريقيا قد استهدف لتخريب الوندال ونهبهم ، باستثناء ثلاث مدن حصينة استطاعت أن تقاوم ، وهذه المدن هي . هيبورجوس وكيرتا والعاصمة قرطاجنة .

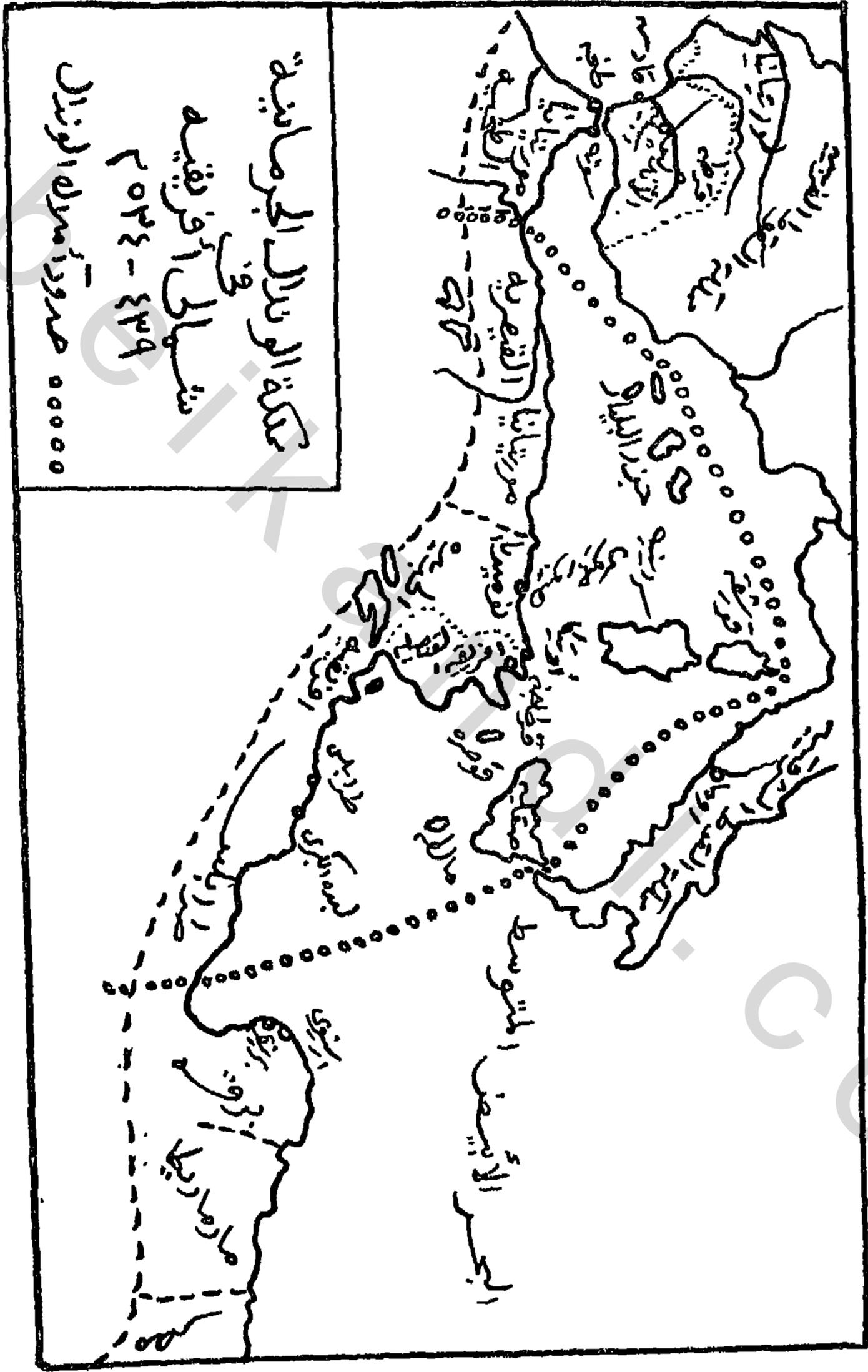
أما حصار هيبورجوس ، فقد بدأ حوالي نهاية شهر مايو من عام ٤٣٠ م ، وتقع هذه المدينة غربي قرطاجنة على بعد حوالي ١٨٠ ميلاً ، ومكانها الحالي هو المدينة الفرنسية بونا Bona . وهيبو محل إقامة القديس أوغسطين ، كان عاكفاً على بحوثه وكتبه عندما وصلته أنباء الغزو الوندالي ، وسمع بما فعله الوندال من قتل ونهب وإبادة أشجار الفاكية وتدمير الكنائس ، في ولاية هادثة تبدو تربتها من كل جانب كأنها تبسم للزائر على قول فيكتور فيتنس ؛ تقدم الأساقفة إلى أوغسطين ملتمسين نصحه وإرشاده في هذه الأزمة الطاحنة ، وسألوه النصيح فيما إذا كان ينبغي عليهم أن يهربوا إلى أحد الحصون القوية التي لم تخضع بعد

(١) Historian's Hist. P. 577 ; Gibbon PP. 330-31 ; Gautier PP. 167-173 ; Dich' (Ch.) et Marçais (G.) Histoire du Moyen Age, (Paris, 1944), P. 39 ; Berthelotl op. cit., ; P. 68 ; Schimidt, L., op. cit., P. 305.

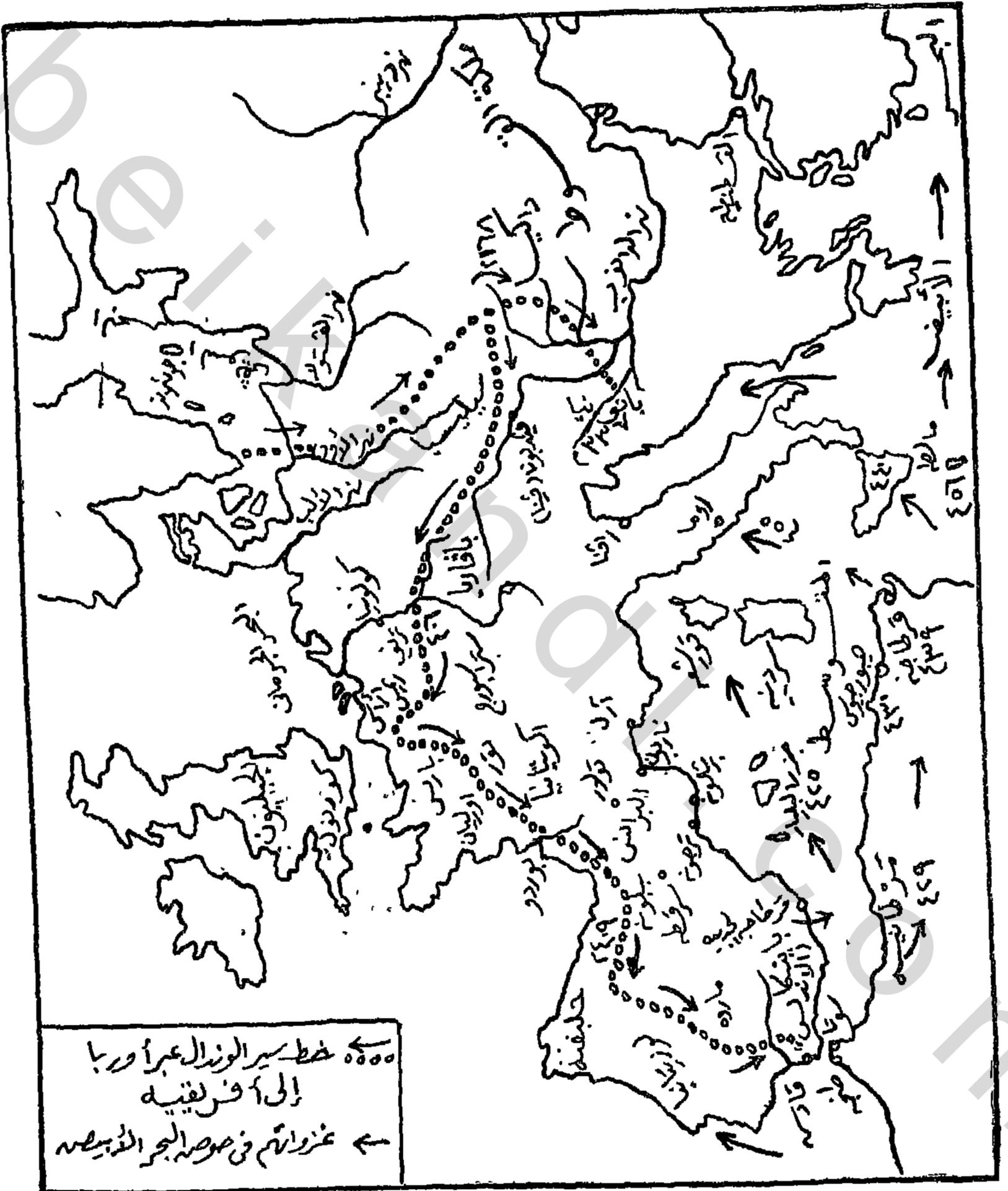


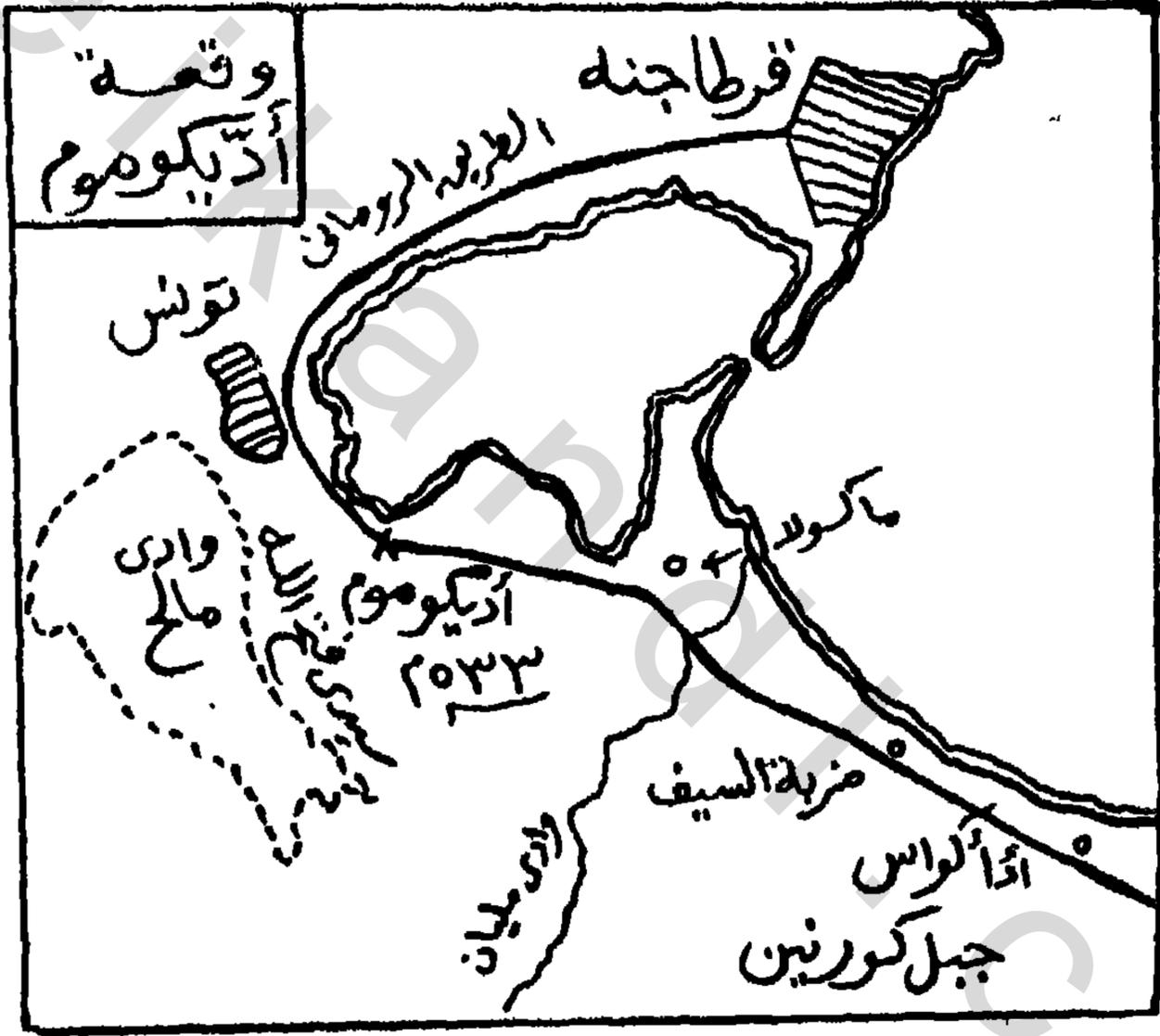
في الفترة الخامس الميلادي
 الشمال أفريقيا
 الرومان

O P K O M C M



شبكة الرتل الجرمانية
متشابهة إلى أفريقيا
٢٠٣٩ - ٢٠٣٤
صورتها من الرتل





للوندال ، أو يبقوا حيث هم ، يمارسون أعمالهم . فأجابهم القديس أوغسطين : « إبقوا مع شعبكم وشاركوهم في المحن » ، غير أن الأساقفة لم يقروا على تحمل البقاء ؛ وقال قائلهم : وما الفائدة في بقائنا ، سوى أن نرى الرجال تقتل والنساء تهتك ، والكنائس تحرق ، أما نحن فسوف يحل بنا التعذيب والتنكيل حتى نجبر على فتح خزائن الكنوز المخفية التي لا نملكها ! ثم أخذوا يرددون معنى قول المسيح : « إذا عذبوك في مدينة ، فاهرب إلى المدينة الأخرى » .

أطرق أوغسطين بعض الوقت ، وفكر أن يحذو حذو البطريقين كبريان Cyprian وأثناسيوس ، اللذين اضطروا للتخلي عن منصبهما فترة من الزمن . ثم وافقهم بعد شيء من التردد ، غير أنه ما كاد ينتهي إلى هذه النتيجة حتى قدم عليه بوسيديوس Possidius أسقف كالاما Calama ، وهو الذي ندين له بالمعلومات عن هذه الأيام الأخيرة من حياة أستاذه أوغسطين ، قدم مع عدد من أساقفة البلاد القريبة من هيبو ، وأبوا إلا أن يشاركوا أستاذهم في البقاء في هيبو رغم الحصار ، وجلسوا أمام أقدام القديس العظيم ، منصتين إلى عذب حديثه الفياض ، الذي كان قبلاً أحلى من العسل ، ولكنه اليوم ينم عن الخوف ، ظل الجميع يتناقشون في هذه المحنة الكبرى ، ويتضرعون إلى الله أن يرفع عنهم هذا البلاء (١) .

وكان في مدينة هيبو المحاصرة ، رجل آخر ، هو المسئول عن كل هذه الكوارث ، هو الكونت بونيفاس ، الذي يكاد الحزن والأسى والأسف يأكل قلبه ، إذ كان قد عاد إلى الصفاء مع بلاط رافنا . فقد كان من الغريب حقاً أن بطلاً شجاعاً مثل بونيفاس ، يفعل هذه الفعلة النكراء ، بعد كثير من الخدمات الجليلة التي أداها للإمبراطورية ، فيستدعي البرابرة لتدمير الولاية التي عهد إليه

بقيادتها وسياستها (٤٢٢ — ٤٣٢ م) ظل أصدقاء بونيفاس يعتقدون أن سلوكه الشائن يمكن أن يغتفر ويتدارك ، فاتفقوا مع الأمبراطورة بلاسيديا وابنها ، في غيبة ايتيوس ، على الدخول في مفاوضة مع بونيفاس ، وقام داريوس Darius سفيراً من بلاط رافنا إلى كونت أفريقية . وداريوس من الضباط الرومان العظام ، ومعروف بحسن سمعته ؛ عقد اجتماعاً مع كونت أفريقية في العاصمة قرطاجنة ، ونوقشت الأحداث التي أدت إلى هذه النتيجة ، أظهر بونيفاس كتب ايتيوس إليه ؛ وأظهرت بلاسيديا على لسان سفيرها أسفها وندمها على موقفها من بونيفاس ، كما أظهر بونيفاس ندمه وتوبته ، ومن ثم عاد الصفاء (١) . وكان القديس أوغسطين ، وقد علم بالمفاوضة دون أن يبحث أسبابها الأصلية ، قد بعث برسالة إلى بونيفاس ينصحه فيها بالقيام بواجبه باعتباره مسيحياً ورعيه من رعايا الأمبراطورية (٢) .

غير أن الأمر أفلت من يده ، فلم يعد بإمكانه أن يربى الصدع الذي أصاب الأمبراطورية ، وعبثاً حاول بونيفاس إقناع جزريك بالجلاء عن أفريقية ، وبذلك في كل ما استطاع من وعود وإيمان وموathيق ، ولكن ملك الوندال العنيد لم يرحم ولم يلب ، فازدري كل شرط أو عهد تقدم به بونيفاس ، ورفض في عناد وإصرار أن ينزل عن شبر واحد مما فتحه من الأرض ، إذ كان يعتقد أن بونيفاس يخدعه .

لم يكن أمام كونت أفريقية سوى الانقلاب ضد حليفه ، وحرار به حرب حياة أو موت ، وحشد له جميع فرقه المدربة ، فضلاً عن الحاميات الأفليمية ، ومع ذلك هزمه الوندال ، فلبجأ إلى هيبيو — عاصمة ملوك نوميديا القدماء — وحصنها واستعان في حمايتها بفرقة من مرتزقة القوط ، وعجزت الأمبراطورية عن إمداده

Gibbon, PP. 332-33; Hist. History, P. 577.

(١)

Gibbon, P. 333 N. 4

(٢)

بمزيد من القوات» (١). واستمات بونيفاس في القتال والدفاع؛ أدت بسالة بونيفاس ومن معه، فضلاً عن أن البحر كان دائماً مفتوحاً أمام هيبو. لإمدادها بما يستطاع من مؤن، أدى في ذلك، بالإضافة إلى صلوات القديس أوغسطين، وعدم مهارة الوندال في حصار المدن المسورة إلى صمود هيبو ومنعتها لمدة أربعة عشر شهراً.

وفي الشهر الثالث من الحصار مات القديس أوغسطين، وكان يومئذ في السادسة والسبعين من عمره، وفي الأربعاء من أسقفيته. وفي الشهر الرابع عشر من الحصار (يولية ٤٣١ م)، اضطر الوندال بسبب الجوع والإرهاق، نتيجة تدمير المناطق المجاورة التي لم تعد قادرة على تموينهم، إلى رفع الحصار؛ فأغرى هذا بونيفاس، بمنازلة الوندال في وقعة حربية، مكشوفة، لعله يقضى عليهم، ويشفي غلة صدره، وكانت أمداد قد وصلته من الأمبراطورية، كذلك قد جاءت من بيزنطة بقيادة أعظم قادتها «أسبار» الألاني (٢)، وكانت بلاسيديا قد توسلت إلى الأمبراطورية الشرقية لإنقاذها. تولى بونيفاس القيادة لجيشي الشرق والغرب، غير أنه منى بهزيمة كبرى، قررت في الواقع مصير أفريقية نهائياً؛ فعاد أسبار إلى بيزنطة، كما توجه بونيفاس إلى إيطاليا حزيناً أسفاً يائساً، وذلك بدعوة من الأمبراطورة، ليلى منصب القائد العام للجيش الرومانية بعد مقتل فيليكس Felix (٣).

والمعروف أن أيتيوس كان قد حرض الجنود ضد فيليكس فقتلوه في رافنا عام ٤٣٠ م، وولى منصب القيادة العامة للجيش الرومانية عن طريق الاغتصاب، ولسكن بلاسيديا، رأت أن تسند هذا المنصب إلى الكونت بونيفاس، بعد أن ثبت وفاؤه وندمه وإخلاصه، فاستدعته في عام ٤٣١ م أو ٤٣٢ م، وعينه

Lot, Les Invasions, P. 88.

Gautier, PP. 179-183 ; C. Med. H. (Sh.), I, P. 90.

Gibbon, PP. 325-26 ; C. Med. H. (Sh.), I, PP. 89-90.

(١)

(٢)

(٣)

في منصب القيادة العامة ، بدلاً من أيتيوس المنتصب ، فكان ذلك مدعاة لنشوب حرب أهلية بين بونيفاس وأيتيوس . كان أيتيوس قد عاد في ذلك الوقت من الغال ومعه جيش من أحلافه البرابرة ، فالتقى به بونيفاس قرب مدينة ريمي Rimini وأنزل به هزيمة منكرة ، فر بعدها أيتيوس إلى أحلافه من الهون ، ولكن الجرح الذي أصاب بونيفاس في الواقعة ، لم يمهله طويلاً ومات عام ٤٣٢م ، فخلفه في القيادة العامة سباستيان Sebastian زوج ابنته ، ولكنه لم يلبث أن طرده أيتيوس في العام التالي ، ومن ثم أصبح أيتيوس سيد الموقف والحاكم بأمره في الغرب (١) . وهكذا غرقت الإمبراطورية الرومانية في الغرب ، في حمأة الحروب الأهلية والمنافسات على السلطة ، في وقت هي أشد ما تكون فيه حاجة إلى تركيز جهودها وتوحيد قواتها ضد الوندال .

أما الوندال ، فقد تمكنوا من فتح هيبو ، بعد أن دكوا حصونها وأخذوا القتل والأسر في أهلها الذي هبوا للدفاع عنها على أثر رحيل بونيفاس .

واقدم هدد انتصار الوندال ، الإمبراطورية الرومانية بشطريها ، لأن أفريقية لم تكن مجرد مخزن قمح للإمبراطورية الغربية ، بل أن وقوع موانئها في يد الوندال يهدد السيادة الرومانية في البحر المتوسط ، ويحرمها من أحسن موانئها وأقوى حصونها (٢) .

وبعد هذه المرحلة العاصفة من حياة الإمبراطورية الرومانية في الغرب ، وضع للبلاط الإمبراطوري في رافنا استحالة اقتلاع الوندال من أفريقية ، كما وضع لجزريك من ناحية أخرى ، أهمية العمل على تثبيت فتوحه وتدعيمها ، وقد أدرك ملك الوندال صعوبة الاستيلاء على قرطاجنة العاصمة ، ليقظة المدافعين

Hist. History, P. 580.

(١)

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٧١ ، ٧٢

C. Med.;H. (Sh.), I, P. 90 ;

عنها ، ومناعة أسوارها وحصونها ؛ يضاف إلى ذلك أن جزريك كان في حاجة إلى فترة هدوء ، لكي يدعم عرشه الذي بدأ يهتز تحت سبب نزاع عائلي اشتد في ذلك الوقت ، ذلك أن أبناء أخيه جوندرك ، دأبوا على الطعن في خلق جزريك ، وتعييره بأصله ، إذا كان أخاً غير شرعي لجوندرك . حقيقة أعدمهم جزريك وأغرق أمهم في نهر امبساجا Ampsaga ، إلا أن تدمراً عاماً دب بين قومه ، وأدى إلى قيام مؤامرات ضده ، فأخذ يقتل كل من يشك في ولائه من الوندال حتى قيل أن ما أراقه من دماء قومه بيده ، يفوق ما أريق من دماءهم في ميادين القتال . وهناك ثورة المغاربة والدوناتيين والكاثوليك ، كل ذلك هدده وهدد فتوحه الحديثة ، بل حدث أن عجز عن التقدم إلى قرطاجنة ، فاضطر إلى التقهقر بقواته ، وساعد أعداءه أن البحر كان مفتوحاً أمامهم دائماً ، مما يهدد بوصول الأساطيل الحربية من إيطاليا وأسبانيا ، فضلاً عن أنه قد تفكر بيزنطة في معاودة الكرة والاشتراك مع رافنا في قتال الوندال . وفي قلب نوميديا ، كانت مدينة كيرتا Cirta الحصينة — وهي قسنطينة الحالية — لا تزال تقاوم بعنف وعناد . كل هذه الصعوبات ، جعلته يطلب الصلح وهو في أوج انتصاره (١) ؛ بل أنه عرض استعداده لإرسال ابنه هنريك رهينة لضمان ولاء الوندال ، وطلب أن يعطى ما فتح ؛ والواقع أن جزريك لم يكن صادقاً في عرضه بالولاء والقناعة بما فتح ، وإنما هي المشاكل الداخلية وحاجته إلى الراحة فترة ، هي التي دفعته إلى طلب المفاوضة والصلح (٢) .

أشارا أيتيوس على الإمبراطور وأمه بقبول المعاهدة مع الوندال ، فأرسل الإمبراطور سفيراً من قبله لمفاوضة الوندال ، وكان هذا السفير تريجييتوس Trigetius (٣) أتم السفير الإمبراطوري الصلح ووقع في هيبو في ١١ فبراير

(١) Gibbon, PP. 336-338 ; Gautier, PP. 184-186 ; Berthelot, op. cit., P. 68.

(٢) Lot Les Invasions P. 89.

(٣) كان تريجييتوس أحد أعضاء الوفد الذي صحب الباباليو في عام ٤٥٢ فيما بعد لمقابلة أنيلا ملك الهون .

٤٣٥ م . وأهم شروطه : السماح للوندال بالبقاء في ولايات أفريقية الرومانية كإماهدين ، باستثناء منطقة قرطاجنه ، وأن يدفعوا جزية سنوية (١) .

والمهم في هذه المعاهدة أن الإمبراطورية الرومانية اعترفت رسمياً بشرعية استقرار الوندال في أفريقية ، وأصدر الإمبراطور فالنتينيان الثالث عدة تشريعات إنسانية للتخفيف عن الرعايا الذين قاسوا من الوندال في موريتانيا ونوميديا ، فأعفاهم من ديونهم ، وأنقص الجزية المفروضة عليهم إلى الثمن ، ومنحهم حق استئناف الأحكام الصادرة من حكاهم إلى روما (٢) . أما تنفيذ شروط المعاهدة فلم يكن تاماً ، فلم يدفع جزيريك الجزية التي اعترف بها ، كما أن الرهينة هرب ، وحث ملك الوندال في إيمانه بعدم الاعتداء .

أخذ جزيريك من مركزه الجديد المعترف به في موريتانيا وقيصرية استفسس (٣) نقطة وثوب على ما بقي من أملاك الرومان في شمالي أفريقية ، كما جعله مركزاً للقرصنة في البحر الأبيض .

وقبل أن تنقضى خمس سنوات على توقيع المعاهدة ، حتى قام جزيريك واقتحم قرطاجنة عنوة ، ونهبها واستباحها في ١٩ أكتوبر ٤٣٩ م ، فقد تراخت يقظة الحامية الرومانية فيها خلال تلك الفترة ، استولى على قرطاجنة بدون حرب تذكر ، فظفر بذلك بأحسن ميناء في غربي البحر الأبيض ، كما ظفر بحقول القمح التي طالما طمع فيها منذ أمد طويل (٤) . واتخذها عاصمة لمملكته في شمالي أفريقية ، واعد قرطاجنة ، في نظر المعاصرين « روما العالم الأفريقي » (٥) .

(١) Deanesly P. 76 ; Hodgkin PP. 248-50; Hist. History PP. 579, 599.

(٢) Gibbon, P. 337, N. 2.

(٣) أنظر الخريطة

(٤) Moss, PP. 48-50 ; Gautier, PP. 189-191 ; Gibbon, PP. 338-339 ; C. Med. H., P. 91 ; Schmidt, op. cit., P. 306.

(٥) Gibbon, P. 338 ; Deanesly, P. 76 ; Hodgkin, PP. 250-51.

وقد تعرض سكان قرطاجنة لأقسى أنواع الاضطهاد والعنف ، إذ أمر جزريك جميع السكان باظهار ما لديهم من ذهب وفضة وجواهر وأثاث، وتسليم ذلك كله إلى مندوبيه ، ومن يحاول أن يخفي شيئاً ، يعاقب بالقتل والتعذيب باعتباره خائناً للدولة ، ولقى النبلاء وأعضاء السناتو أشد أنواع الاضطهاد والتشريد، وهرب الكثير منهم لاجئاً إلى إيطاليا أو الولايات الشرقية . ومن هؤلاء كايلاستيان Caelestian عضو السناتو النبيل في قرطاجنة ، اضطر إلى التسول هو وزوجته وأسرته وخدمه في البلاد الأجنبية ، كذلك ماري Maria ابنة أحد نبلاء قرطاجنة ، افتداها بعض التجار السوريين من الوندال ، لكنهم باعوها بعد ذلك في بلادهم ، حتى قبض الله لها بعض الأيدي الرحيمة فأنقذتها(١) . وهكذا ، كانت شنائع الوندال في قرطاجنة ، ولم تستطع الأمبراطورية الرومانية أن تفعل شيئاً .

أضحى الوندال سادة أفريقية الرومانية ، ويبدو أن جزريك اتخذ لقب « ملك » منذ استيلائه على قرطاجنة ، بدليل أن المؤرخ المعاصر فكتور فيتنس V. Vitensis قال : إن هجوم جزريك على روما (٤٥٥) كان في السنة الخامسة عشرة من حكمه ، كذلك أرخ له بروكبيوس وپروسپر ، باعتباره ملكاً منذ ذلك الحادث ؛ ثم أن القرارات والمراسيم التي أصدرها جزريك ، على أثر استيلائه على قرطاجنة كانت تنسبته بلقب « ملك الوندال والآلان » وأحياناً « ملك قرطاجنة » أو « ملك إفريقية » ؛ ويقول المؤرخ البيزنطي ثيوفانيز Theophanes : « لقب جزريك نفسه ملك البر والبحر(٢) » .

* * *

وبعد أن ثبت جزريك حكم الوندال في هيبورجيوس وقرطاجنة ، وجه

Ibid, PP. 339-40 ; Hist. History, P. 579.

(١)

Oman, PP. 7-8.

(٢)

همته لبناء السفن ، رغم أن الوندال ، كعظم غيرهم من البرابرة لم يمرنوا على بناء السفن ، إلا أنهم أفادوا من نواة البحرية التي كان بونيفاس قد أمدهم بها سابقاً ، ومن ثم صار جزريك يمتلك أكبر قوة بحرية ضاربة في البحر المتوسط (١) .
وأما جزريك ببقية حياته ، حتى وفاته عام ٤٧٧ م ، في أعمال القرصنة ضد البلاد المساحلة للبحر الأبيض ، فتعرضت لغزوه ونهبه : إيطاليا وصقلية ومالطة وسواحل أسبانيا المطلة على المحيط الأطلسي ، بل وصلت غزوات الوندال البحرية إلى ساحل الليريا وبلاد البلوبونيز وجزر بحر ايجه ، وحتى الإسكندرية مفتاح البحر الأبيض (٢) .

على أن البلاد التي تعرضت لهجوم القراصنة الوندال ، لم تكن مقصودة بعينها أولذواتها ، إذ لم يكن هناك هدف معين في الهجوم على بلد دون آخر ، وإنما الهدف العام هو الحصول على المنعم بجانب الانتقام عن عرفهم الوندال واشتبكوا معهم ، وهم الرومان بشطريهم في الشرق والغرب . ويقال إن رجال البحرية الوندالية كانوا لا يعرفون الجهة التي سوف يهاجمونها ، فحينما تستعد السفن للابحار من ميناء قرطاجنة ، جرت العادة ، أن ينزل جزريك من قصره الذي يقيم فيه ، وكان هذا القصر قبلاً مقر حكام الولاية القنصلية الرومانية ، فيسأله ربان السفن عن أوامره ، وإلى أي اتجاه يسرون فيه ، فلا يجهد الملك جزريك نفسه طويلاً في تحديد الهدف ، بل يجيبه على الفور : «دعنا نذهب إلى مساكن أولئك الذين حلت عليهم لعنة الله ، ثم يترك الرياح والأمواج توجهه حيث شاءت (٣) .

والمرّة الثانية ، وبعد نحو ستة قرون ، يبرز اسم قرطاجنة مخيفاً مرعباً لسكان ضفاف النيبير (روما) ، حتى أن الشعراء المعاصرين وتبهمهم المتأخرون منهم ،

Guaiter, PP. 217-21.

(١)

Deanesly, P. 77.

(٢)

Hodgkin, PP. 251-52.

(٣)

وصفوا غزوات جزريك لإيطاليا بأنها صورة أخرى من صور الحروب البونية ، واعتبروها حرباً بونية رابعة ، يقول سيدونيوس .

“Heu Facinus ! in bella iterum quartosque labores Perfida Eliseae crudescunt classica Byrsae”.(١)

وخلال السنوات التي تلت سقوط قرطاجنة مباشرة ، أضحت جزيرة صقلية الهدف الرئيسي لغزوات الوندال ، لشهرتها في إنتاج القمح (٢) . ففي عام ٤٤٠ م اقتحم جزريك هذه الجزيرة ، وعاث فيها نهباً وتدميراً ، واضطر للوقوف فترة قصيرة والعودة إلى أفريقية ، حين بلغه نزول القائد الروماني الشجاع سبستيان زوج ابنة بونيفاس ، فلما علم أن هذا الضابط ما جاء محارباً ، ولما جاء لاجئاً من اضطهاد ايتيوس ، استأنف عملياته الحربية في صقلية . وفشلت الحملة البيزنطية التي أرسلها الإمبراطور الشرقي تيودسيوس الثاني في عام ٤٤١ م ، لمعاونة الإمبراطورية الغربية في حروبها ضد الوندال ، ورجع فشلها إلى اختلاف كلمة قادتها ، من ناحية ، واضطرار بيزنطة لإعادتها عام ٤٤٢ م من ناحية أخرى لمواجهة خطر أتيل ملك الهون . وبذلك ضاعت الفرصة الوحيدة لإعادة أفريقية ، خلال انشغال جزريك في صقلية (٣) .

حينئذ شعر الإمبراطور فالنتينيان ومستشاره أيتيوس باليأس من ناحية مساعدة بيزنطة ، وبالعجز عن مقاومة الوندال ، فاضطرا لعقد معاهدة في عام ٤٤٢ م مع جزريك سلم بمقتضاها صقلية أو جزءاً كبيراً منها الوندال ، واعترفت للمعاهدة كذلك بحقوق الوندال في مملكتهم بأفريقية كماهدين . ولم يكن في يد الرومان من ساحل أفريقية الشمالي سوى الجزء الأوسط والشرقي من الساحل — الجزائر الحالية تقريباً — وطرابلس (٤) .

(1) Hodgkin, P. 253 ; Gautier, P. 217.

Deanesly, P. 76.

Hodgkin, P. 254 ; Gautier, PP. 221-225.

Villari, PP. 99-101 Boissonnade, P. 27 ; Gautier, PP. 226-32.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

ولضعف الأمبراطورية الغربية ، ظل ايتيوس يرضى مطامع ملك الوندال ، لكي يحول دون اعتداءات جديدة ، بل اقترح المستشار الروماني أن يتزوج هنريك أكبر أبناء جزريك من ابنة فالنتينيان الثالث الطفلة ؛ وكان هذا الطعم قد أغرى ملك الوندال بإعادة زوجه ابنة السابقة ، وهي ابنة ثيودريك الأول ملك القوط الغربيين في عام ٤٤٥م ؛ أعادها إلى أبيها في حالة سيئة مشينسة ، إذ قطع أذنيها وجذع أنفها ، بحجة أنها تأمرت على ابنه بدس السم له (١) . فكان هذا الحادث إهانة بالغة ، فضلا عن كونه نقضاً لاتفاقية سابقة بين القوط والوندال ، مما أثار القوط للانتقام من الوندال (٢) .

ومما لاشك فيه ، أن جزيرة صقلية ، أصبحت في ذلك الوقت ، أو بعده بقليل ، جزءاً من أملاك الوندال المعترف بها ؛ ومن المحتمل ، أنه قبيل وفاة جزريك في عام ٤٧٧م . كان الجزء الأكبر من الجزيرة ، قد تنازل عنه الوندال لأدواكر Odoacr الذي شل عرش أباطرة الغرب وأنهى الأمبراطورية الغربية منذ عام ٤٧٦م ، وكان هذا التنازل نظير جزية يدفعها أدواكر لملك الوندال (٣) .

الخلاصة ، لم تعد صقلية جزءاً من إيطاليا ؛ وهي التي ارتبطت بها منذ أقدم عصور التاريخ ، فضلاً عن الارتباط الجغرافي ؛ ورغم توقيع المعاهدة ، فلم يكف جزريك عن الغزوات وأعمال القراصنة ، إذ لم تنزل لديه المبررات الكافية للغزو في كل ربيع ، وذلك للنيل من البلاد التي « حلت عليها لعنة الله (٤) . »

Hist. History, P. 582.

(١)

(٢) دولة القوط الغربيين ص ٩١ .

C. Med. H. I, P. 91 ; Bradley, H., The Goths, PP. 110-111.

(٣) إبراهيم طرخان نهاية : الأمبراطورية الغربية (مجلة الآداب - جامعة القاهرة - العدد

التذكاري ١٩٦٢) ; Hodgkin, P. 255, N.G., PP. 503-504.

Hodgkin, P. 255.

(٤)

أما جزائر البحر الأبيض الأخرى ، مثل سردينيا وقورشقة وجزر البليار ، فالمعروف أن سيطرة الوندال عليها . كانت أسبق وأقوى من سيطرتهم على صقلية ، بل أن هذه الجزائر كانت أكثر ارتباطاً بمملكة الوندال . من صقلية .

وبعد سبع وعشرين سنة من دخول البرابرة الوندال أفريقية ، وبعد اتخاذهم قرطاجنة عاصمة لدولتهم ، بستة عشر عاماً ، استصرخت الأرملة أيودكسيا Eudoxia ، عقب مقتل زوجها الأمبراطور فالنتينيان الثالث ، في ١٦ مارس من عام ٤٥٥ م ، بنحو ثلاثة شهور ، طالبة تدخل جزريك ملك الوندال لمساعدتها ، فقد حدث أن تخلص الأمبراطور من ايتيوس ، فانتقم أنصاره بقتل الأمبراطور (١) . ولم يتحرك أحد للدفاع عن الأمبراطور ، مما يدل على أنه كان كريهاً لشعبه وحكومته ، وبمقتله انقرض فرع تيودسيوس العظيم ، وانتخب الناس والجيش بترونيوس ماكسيموس Petr-Maximus عضو السناتو وكان في السنين من عمره في ذلك الوقت ، فأجبر أيودكسيا على الزواج منه ، وعلى تزويج ابنه قيصر بلاديوس C. Palladius من إحدى بناتها لكي يضمن العرش لابنه من بعده ، فضلاً عن تدعيم سلطته ، ولكنه فشل في كسب قلب الأمبراطورة الحزينة وفي الاحتفاظ بعرشه . ومن ناحية أخرى لم يفعل شيئاً نحو قتلة الأمبراطور فالنتينيان ، بل على العكس قربهم منه ، مما يحمل على الظن أن له يدأ في مقتل سلفه (٢) . أو أنه كان يخشى بطش البرابرة ، أو يخشى مصيراً مثل مصير فالنتينيان .

لم تكف أيودكسيا عن الحزن على زوجها ، وكانت معروفة بأنها أجمل

(١) راجع تفاصيل هذه الأحداث في بحث : نهاية الأمبراطورية الرومانية الغربية ، (مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة العدد التذكاري ١٩٦٢) .

نساء روما ، وكانت تحب زوجها رغم سلوكه الشخصي وخيانتة الزوجية ، شعرت بالحزن والعار لزواجها من كهل وهي لم تتجاوز الرابعة والثلاثين من عمرها (١) .
وفقدت كل أمل في مساعدة القسم الشرقى من الإمبراطورية ، إذ كانت عمتها بلكاريا Pulcharia ، ابنة الإمبراطور ارКАДيوس ، قد ماتت في بيزنطة منذ عام ٤٥٣ م ، وهي آخر فرع تيودسيوس في الشرق ، وكانت تحكم في الشرق باسم أخيها تيودسيوس الثاني . لم تجد ايودكسيا بداً من الاستغاثة بملك الوندال ، ووصل سفيرها سرّاً إلى قرطاجنة ، حيث أبدى استعدادة التام لغزو المدينة الخالدة ، وسيدة المدن ، تحت ستار نصره أسرة فالنتيان .

ولما شاع في روما نبأ قدوم الوندال ، هرب نبلاء المدينة ، ولم يفعل الإمبراطور ما كسيموس شيئاً للدفاع أو المقاومة ، بل أصدر مرسوماً أباح فيه الهروب لمن يريد مغادرة المدينة ، والواقع أنه كان في قصره يمهّد لنفسه الطريق للهروب ، غير أن المخلصين من أبناء روما ، غضبوا من هذا التصرف العاجز ، بعد أن وضعوا في الإمبراطور ثقهم وتوقعوا أن يقوم بأي إجراء لمقابلة هذه الكارثة ، التي كان سبباً فيها ، ثار الجنود وحال خدم القصر وحراسه دون فرار الإمبراطور ، ودخلوا عليه وقطعوه بسيوفهم ، وجروه في شوارع المدينة ، فشاركهم الناس في التمثيل ، ثم ألقوه في نهر التيبر ، حتى لا تقام له طقوس الدفن (٢) . وقع هذا الحادث في ٣١ مايو ٤٥٥ م ، أي بعد ولايته العرش بأقل من ثلاثة شهور (٣) .

لم يكن جزريك بحاجة إلى رسالة من ايودكسيا ، تدعوه فيها لغزو روما ، فهو يتحرق شوقاً لمداومة المدينة الخالدة ، وهي التي « حلت عليها اللعنة » في هذه المرة . وسرعان ما شوهد أسطول الوندال في أوستيا Ostia ميناء روما ، وذلك

Ibid.

Villari, P. 125.

Hist. History, P. 600 ; Hodgkin, PP. 195-205.

(١)

(٢)

(٣)

في اليوم الثالث بعد مقتل ما كسيموس (٢ يونية) (١). تقدم جزريك نحو روما بمحشوده من الوندال والمغاربة (٢). فلم يسمع البابا ليو الأول إلا الخروج على رأس وفد من رجال الدين ، بعد أن ألقى خطبة حماسية في كنيسة القديس بطرس وكان يرجو أن يفعل شيئاً لحماية المدينة ، كما نجح من قبل عندما التقى بملك الهون أتيلاعلى ضفاف نهر منشييو Mincio منذ ثلاث سنوات . كان نجاح البابا ليو محدوداً ، كما كان الشأن في مقابله السابقة مع الهون (٣). والواقع إن جزريك لم يهدف من غزوته هذه إلى شيء سوى النهب والغنيمة ، ولم يطمع في السلطان أو الحكم . قبل جزريك أن يحمقن دماء أهل المدينة ، وألا يحرق المباني العامة أو الخاصة ، كذلك وافق ، بعد كثير من التردد ، على ألا يعذب أحداً ليعترف بكنوز ثروة مخبوءة ؛ غير أن أوامر جزريك لرجاله لم تكن جادة ، أو أنها لم تنفذه .

دخل ملك الوندال مدينة روما ، بعد هذه المقابلة ممتطياً صهوة جواده ، وتجول في هدوء داخل شوارعها ، وظل بها خمسة عشر يوماً ، تعرضت فيها روما لشرا أنواع النهب والسلب والاستباحة ، فلم يتقيد كثيراً بما اتفق عليه مع البابا ، نهب ما استطاع الحصول عليه من ذهب وفضة ونحاس من القصر الإمبراطوري ، ونهب الكنائس ، فاستولى على ما فيها من كنوز وجواهر وأواني ، وانتزع نصف سقف الكابتيول وهو معبد الإله جو بتير كبير آلهة الرومان ، وكان مصنوعاً من أجود أنواع البرونز ومغطى بطبقة سميكه من الذهب في غاية الروعة الفنية ، ويحتمل أن الوندال ظنوا في بادئ الأمر أن السقف كله مصنوع من الذهب فلما بدأوا ينتزعونه ، وجدوه من النحاس ، ولعل هذا هو سبب اكتفائهم بنصفه ، استولوا كذلك على أروع التماثيل التي وجدوها ، غير أن السفينة التي

Gautier, PP. 232-33

Hist. History; P. 601.

Villari, P. 125..

(١)

(٢)

(٣)

شجنت فيها هذه التماثيل ، غرقت بها في عودتها ، فاختنى بذلك أجل التماثيل
لآلهة الرومان مثل الإلهة فون Faun آلهة الحقول نيمف Nymph إلهة
الغابات وغيرها (١) .

ورغم شنائع الوندال في البلاد التي غزوها ، فإنهم لم يشنوا حرباً مبيدة ضد
العبارة والفنون ، وكل ما كان يهمهم هو الذهب والفضة والأحجار الكريمة ؛
ومع ما فعلوه هذه المرة في روما ، فإنهم لم يفعلوا الكثير بالمقارنة بما فعله غيرهم مثل
القوط الشرقيين والبيزنطيين واللومبارد ، وعلى رأس المدمرين جميعاً النورمان ،
بل البارونات الرومان أنفسهم في العصور الوسطى ، ولذا لا يلام الوندال ، على
الرغم من المثل النازل بالوندل 'Vandalism' ، أو التخريب ، فإنهم أقل إجراماً
من غيرهم في تدمير الآثار الفنية .

كان من بين المنهوبات التي نقلت إلى قرطاجنة الأواني المقدسة الخاصة
بالمعبد اليهودي ، مثل المنضدة الذهبية والشمعدان الذهبي ذي السبعة فروع ويؤكد
بروكبيوس سكرتير بلزار يوس ، أنه عند القضاء على الوندال فيما بعد ، عثر في قصر
جليمر Gelimer آخر ملوك الوندال ، على هذه الأواني وعلى الكثير من الجواهر
والتحف مثل السروج الذهبية ، والعربات المذهبة المخصصة لسيدات القصر ،
وكميات كبيرة من الذهب ، والأحجار الكريمة . وهذه كلها حملت إلى بيزنطة ،
وأضفت على انتصار بلزار يوس روعة وبيهاء (٢) .

(١) Schmidt, op. cit., P. 308 ; Historian's Hist., P. 601 ; Hodgkin, PP. 284-86 ; Guaiter, PP. 235-38.

(٢) نقلت الأواني المقدسة الخاصة بالمعبد اليهودي ثانياً إلى القدس ، حيث وضعت
في الكنائس المسيحية ، وعندما رآها أحد اليهود ، علق بقوله لأحد أصدقاء الأباطور ،
بأنها شوم على المكان الذي تحمل به ، فقد أدى وجودها في روما إلى غزو الوندال لها ، ثم أدى
نقلها إلى قرطاجنة إلى القضاء على الوندال أنفسهم . وهي في ذلك تشبه وجود « سفتا موسى »
في مدن فلسطين (Hodgkin, P. 286) أنظر ما يلي Davis, P. 23

أخذ جزريك في عودته من روما عدداً كبيراً من الأسرى ، يقدر بيضنة آلاف من الذكور والإناث ، ومن بين الأسرى أيودكسيا — وهي أرملة اثنين من الأباطرة ، وابنة إمبراطور ثالث (تيودسيوس الثاني) — وكذلك أسر ابنتها أيودكسيا وبلاسيديا Placidia ، ويبدو أنه كان في أسر الأباطرة وابنتيها حماية لمن من غضب الرومان ، حتى لا يقعن فريسة لأهل روما الساخطين . ومن بين الأسرى كذلك جودنتيوس Gudentius بن ايتيوس ، وكان لهذا الابن قد تقدم من قبل للزواج من إحدى ابنتي الإمبراطور . زوج جزريك أيودكسيا الأبنة ، وهي الكبرى ، من هنريك أكبر أبنائه ، في نفس الشهر (يونية ٤٥٥) (١) ، أما أيودكسيا الأم والبنت الثانية ، فعاملهما ملك الوندال بكل احترام ورعاية ، ووفر لهما الحياة الكريمة في القصر الملكي بقرطاجنة ، وظل أمرهن على هذا النحو لمدة سبع سنوات (٢) .

وضم الأسرى عدداً كبيراً من المدنيين وأرباب الحرف وأصحاب الكفاءات النادرة ، وقد وزع هؤلاء الأسرى رقيقاً على رجاله ، ولذا لا بد وأن الدماء الرومانية قد امتزجت بالسكان في أفريقية الشمالية ، وكثير من سكان جبال الأطلس الحاليين ، لا بد وأنهم من سلالة هذا المزيج ؛ ومع أن الأسرى الرومان لم يلقوا الكثير من سوء المعاملة من جانب الوندال ، إلا أن ديوجراتياس Diogratias أسقف قرطاجنة ، بذل ما استطاع من جهد لمساعدة الأسرى والتخفيف عنهم ، إذ باع جميع الأواني الذهبية ومجوهرات الكنيسة وكنوزها ، وافتدى كثيراً من الأسرى ، ولكي لا تنفصم الروابط الأسرية ، نتيجة افتراق الكثير من هؤلاء الأسرى عن عائلاتهم ، إذ كان جزريك في توزيعه الأسرى

(١) Lot, Les Invasions, P. 115 ; Deanesly, P. 77 ; Dill, PP. 335-6 ; Souttar, P. 328.

(٢) أعاد جزريك أيودكسيا الأم وابنتها بلاسيديا إلى القسطنطينية ، تحت إلهام الإمبراطور الشرقي ليو ، وفي بينقطة تزوجت بلاسيديا من أولييريوس Olbrius عضو السناتور ، وهو الذي صار إمبراطوراً على الغرب فيما بعد .

على قومه ، كان يفرق بين الزوجة وزوجها وأطفالها وأبويها ، عمل أسقف قرطاجنة على توفير المسكن الصالح لجميع أفراد عائلات الأسرى ، ممن لم يستطع اقتدائه ، وذلك بأفراد كتدراييتين لهم ، وحول هاتين الكدراييتين إلى مستشفيات وأعد فيها الفراش وجميع ما يلزم لإقامة الأسرى ، وتولى بنفسه الإشراف عليهم ومواساتهم ، فكان يزورهم مرتين في كل يوم ، ويشرف على طعامهم ، ويصحب الأطباء لمعالجتهم ، وخلال قيامه بهذا العمل العظيم ، مات مأسوف عليه ، فحزن الأسرى عليه أعمق الحزن ، ودفن في مكان سرى ، حتى لا تتعرض جثته إلى السرقة على هواة جمع آثار القديسين (١) .

* * *

وهكذا قامت دولة الوندال في شمال أفريقية ، وعجزت الأمبراطورية الرومانية بشطريها عن صد أخطارهم أو اقتلاعهم من أفريقية ، وظلت الأمبراطورية الغربية في الفترة ما بين ٤٥٦ م ٤٧٢ م في اضطراب داخلي متصل الحلقات ، حتى سقطت نهائياً في عام ٤٧٦ م (٢) .

— ٤ —

بدأ حكم الوندال في شمالي أفريقية ، من العاصمة قرطاجنة عام ٤٣٩ م ؛ وكانت الأمبراطورية الرومانية في الغرب ، قد اعترفت بوصفهم « معاهدين » Foedrati منذ عام ٤٣٥ م ثم اعترفت باستقلالهم في عام ٤٤٢ م (٣) .

وحكومة الوندال ملكية استبدادية ، وظلت كذلك زمن جزريك وخلفائه من بعده ، حتى زال ملكهم من أفريقية ، والملاحظ أن هذا النظام الاستبدادي ، لم يكن سائداً عند الجرمان الآخرين الذين أخذوا بنظام الملكية ، مثل القوط

(١) Hodgkin, PP. 286-89 ; Hist. History, P. 602 ; Villari, P. 127.

(٢) نهاية الأمبراطورية الرومانية في الغرب .

Deanesly, P. 78.

(٣)

والفرنجة ، ولذا فإن حكومة الوندال أقرب ما تكون إلى حكم الطغاة ، الذين عرفوا في تاريخ الإغريق القديم ، حقيقة تشابهت حكومة الوندال مع بعض حكومات الجرمان ، من حيث إن الملكية محصورة في بيت معين ، ذى أصول مقدسة ، إلا أن سلطة المجالس الملكية كانت تختلف ، فلم يكن لمجلس نبلاء الوندال من السلطة والوزن مثلما كان لمجلس نبلاء الفرنجة أو مجلس طليطلة القوطي (١) .

انحصرت الملكية الوندالية في بيت الأسديين Asdingi ، وهو البيت الذى انحدر منه الملك جزريك وخلفاؤه . ومن دلائل قوة الملكية وطغيانها ، أن جزريك ، أقدر البرابرة في عصره (٢) ، قد طرح ذلك التقليد الذى نشأ بين حكومات البرابرة الأخرى ، وهو تقسيم الملك أنصبه كأنه إرث ، بين الأبناء ، مما كان من أخطر معاول الهدم لتلك الملكيات بعد زوال مؤسسيها . لقد أوصى جزريك ولى عهده ، بأن يكون الحاكم الأعلى مسلطاً على جميع أملاك الوندال كتلة واحدة غير مجزأة ، فدللت هذه القاعدة على حصافته السياسية ، كما قوبلت قاعدة ولاية العرش لأكبر أعضاء الأسرة المالكة ، بالرضا التام ، إذ ليس من الضروري أن يكون أكبر أبناء الملك ، وهذا تقليد تيوتوني قديم (٣) .

غير أن هذا التقليد أدى إلى بعض المشاكل حول وراثة العرش من بعد جزريك ، إذ حدث أن حاول هنريك أكبر أبناء جزريك وخليفته من بعده ، أن يولى ابنه من بعده ، ومن أجل ذلك ذبح أخوته وأبناءهم باستثناء اثنين هما وليا أخيه الأصغر جنزو Genzo ، فقد تمكن هذان الإبنان من الهرب (٤) .

(١) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٣٢ - ١٤١ .

(٢) فشر (نفسه) ص ٣٠ .

Deanesly, P. 77 ; Oman, P. 11 ; Schmidt, P. 318.

Oman, P. 11.

(٣)

(٤)

وربما كان من أسباب قوة الملكية الوندالية ، أن منابع الثروة عند الوندال ، لم تعتمد اعتماداً كلياً على الأرض ، أو على أعمال وخدمات طبقة من المحاربين يحاربون أساساً على الأرض ، وذلك على عكس الفرنجة الذين اتجهوا إلى الأرض ، على أثر استقرارهم في الغال ، بعد فترة الإضطرابات والفتوح ، فاعتمدوا على ماتغله أراضيهم وأملاكهم ، وكذلك على ما يجبونه من مكوس وضرائب على التجارة ، أما الوندال فاعتمدوا بصفة أساسية على ما يحصلون عليه من أسلاب ومغانم عن طريق القرصنة ، إذ استولوا على كثير من السفن الإغريقية ، وأصبح لهم أسطول بحري ضخم يتحكم في البحر المتوسط ، حتى أضحت روما ، لأول مرة ، منذ الحرب البونية الثالثة في القرن الثالث قبل الميلاد تحت ، رحمة بحرية تفوقها قوة وضخامة (١) واستطاعت البحرية الوندالية أن تنتزع منها صقلية وسردينية وقورشقة وجزر البليار وغيرها ، أدرك الوندال أن النهب المباشر أسهل مثلاً وأسرع ربحاً وأكثره ، وإن لم يكن أبقاه ، وأهلوا العمل الأصيل في احتكار مصادر هذا الربح مثلاً ، كتجارة البحر المتوسط ، مما أدى في نهاية الأمر إلى القضاء على هذه التجارة ، وعلى الوندال أنفسهم . ومن ناحية أخرى ، أدرك ملك الوندال أن رعايا ، أو أتباعاً أثرياء ، عن طريق القرصنة ، أقل خطراً على عرشه وسلطانه من منافسات طبقة من ملاك الأراضي والنبلاء المحاربين (٢) .

وفيما يتعلق بالجهاز الإداري في دولة الوندال ، ترك جزريك الشيء الكثير منه إلى الموظفين الرومان لخبرتهم الطويلة في الحكم والإدارة ، ومن غير شك كانت رغبات الوندال وتدخل الملك واضحة في جميع الشؤون ، فعمل كبار النبلاء وجميع الموظفين ، كل في اختصاصه ، داخل إطار الطاعة والخضوع دون أدنى معارضة أو احتجاج ، مهما كانت أوامر الملك (٣) . أبقى جزريك على فروع الإدارة

Deanesly, PP. 78-9.

Hodgkin, P. 263.

Oman, PP. 28-30 ; Hodgkin, P. 263 ; Stephenson, PP. 52, 78.

(١)

(٢)

(٣)

اليومية في أيدي البيروقراطية الرومانية ، وهذه مما لا طاقة للجerman بالصبر عليها وممارستها وتنظيمها ، وهذا هو السبب في أننا نجد ، تحت حكم الوندال ، نحا كما على قرطاجنة ، بلقب نائب قنصل Proconsul ، وكذلك حاكم الأقليم في حكومة الوندال بلقب Primarius Provinciae ، وهناك رئيس الحجاب أو رئيس الديوان الملكي : Praepositus sacri cubiculi . أما الاختصاصات التفصيلية المحددة لهؤلاء الموظفين ، فغير واضحة زمن الوندال (١) ، إذ المعروف أن الوندال لم يأخذوا بالحضارة الرومانية قبل دخولهم أفريقية ، ولم يتشبعوا بها وهم في أفريقية (٢) .

أما سياسة الوندال نحو الأراضي التي فتحوها في أفريقية ، فلم تتقيد بالمبدأ القديم الذي طبق في الإمبراطورية الرومانية لصالح البرابرة المتسلطين ، وهو مصادرة أو ضم الأراضي للمعاهدين منهم . كضيافة إجبارية لهم وقد فعل ذلك ، أدوا كروثيودريك في إيطاليا ولكنهم صادروا معظم الأراضي واستولوا عليها ووزعوها بينهم (٣) ، وبدأ جزيريك هذه العملية ، وأكملها بعد فتح قرطاجنة مباشرة ، والملاحظ ، أنه بمقتضى معاهدة ٤٤٢م ، كانت هناك بعض الأراضي التي ظلت بيد الإمبراطورية في طرابلس وموريتانيا ولكن ملك الوندال أكل استيلاءه على جميع هذه الأراضي ، عقب وفاة الإمبراطور فالنتنيان الثالث (٤) .

اختار جزيريك أجود الأراضي المملوكة لكبار أهل أفريقية الرومانية من النبلاء والأشراف والأثرياء ، ووزعها وأصحابها رقيقاً Servi على ولديه هنريك وجزوني Genzoni . ومعنى ذلك أنه احتفظ لنفسه ولأولاده بولايات : بيزا كينا وأباريتان Abaritan وجيتوليا Gaetulia وجزء من نوميديا ، وهذه هي أجود الأراضي

Hodgkin, P. 263 ; Oman, P. 28.

(١)

Chapot, P. 466.

(٢)

Deanesly, P. 78.

(٣)

Hodgkin, P. 263 ; Oman, P. 8.

(٤)

في شمالى أفريقية ، ومن هذه الأراضى المنتخبة تكون الخاص للملكى أوالدومين
Dominicum ، وهى على حد تعبير المؤرخ فيكتور فيتنس : « أرض سيدنا
جزريك : "Gaisericus ; Dominicus noster . أى أن هذا الدومين
الضخم يمثل تقريباً كل الولايتين الكبيرتين ، نوميديا وبيزا كينا وبعض أجزاء
الولاية القنصلية زوجتانا Zeugitana (١) . وهذه الولاية الأخيرة أصغر
الولايات ، إذ تبلغ نحو مائة ميل في خمسين ميل ، لكنها من غير شك أغنى
الولايات ، وتقع قرطاجنة في وسطها (٢) .

وصادر جزريك معظم أملاك عامة الأفريقيين الرومان ، ووزع هذه الأملاك
إقطاعات على قومه من الوندال ، ولكنه تلطف مع هؤلاء الأفريقيين ، وسمح لهم
باسترداد أراضيهم نظير دفع أثمانها ، أى يشترونها مرة ثانية ، إلا أن الجزء الأكبر
من أراضيهم قسم بين الوندال ولاسيما الأراضى الحصبة أما الأقل جودة والمتطرفة
فقد تركها لهم ، ووزع مما صادر على طبقة المحاربين من قومه ، إقطاعات وراثية ،
بشرط أداء الخدمة الحربية ، مع إعفائهم من جميع الضرائب (٣) .

وعرفت التوزيعات الإقطاعية ، أو الأراضى التى وزعها إقطاعات باسم :
إقطاعات الوندال Sortes Vandalorum (٤) . والمعنى الحرفى لهذا المصطلح :
الحصص أو التقسيمات الوندالية ، وكلمة سهم أو حصص أو نصيب Sors ، عرفت
عند القوط الغربيين وعند الفرنجة البريين على الراين ، وكذلك عند البرجنديين
على شواطئ بحيرة جنيف (٥) .

Gautier, PP. 203-210 ; Hodgkin, PP. 257-8.

Gibbon, P. 339 ; Hist. History, P. 579.

Hodgkin, PP. 257-8.

Oman, P. 8.

Deanesly, P. 78 ; Hodgkin, PP. 256, 259.

(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)

ومن هذا التوزيع تبدو بذور النظام الإقطاعي الذي تمخض عنه تدهور المجتمع الفرنسي إبان حكم الكارولنجيين ، مع العلم بأن له أصولاً كذلك ترجع إلى الميروفنجيين أسلاف الكارولنجيين (١) .

وليس من المعقول أن يترك الوندال أغلبية سكان دولتهم الجديدة في أفريقية أحراراً ، فإن الضياع الواسعة التي حازها الملك وأولاده ورجال جيشه ، كانت في حاجة كبيرة إلى جيش كبير من العبيد لزراعتها واستغلالها ، ولذلك انحدر جميع رعايا الوندال من الأفريقيين إلى طبقة العبيد ، وبصفة خاصة ، أولئك الأثرياء من الملاك الذين صودرت أملاكهم ، مما يدل على صلف البرابرة وعتوهم ، ولكن بمرور الزمن ، أثبت أصحاب المدينة القديمة والثقافة العالية وجودهم وأهميتهم ، إذ لم يلبث أولئك الأرقاء الأرستقراطيون من المستوطنين الرومان ، أن صاروا القوة المحركة لزملائهم من الأرقاء الخاضعين للوندال ، حتى قيل ، إنه إذا طال أمد الحكومة الوندالية ، على النحو الذي سارت إليه في طريق الانهيار ، لن يكون هذا إلا لحساب هذه الطبقة المستنيرة ، التي سوف تسيطر على مجرى الحوادث وعلى مصير الوندال أنفسهم .

أما طبقة الفقراء ، فهم وإن تركوا أحراراً فيما أبقى لهم الوندال من أملاك ، إلا أنهم أثقلوا بأنواع الضرائب المختلفة ، حتى حاول الكثير منهم الفرار ، ومن قبض عليه أعدم (٢) . وهكذا قاسى جميع السكان من رعايا الوندال . ويمكن أن نتبين طبقتين فقط في مجتمع الدولة الوندالية في شمالي أفريقية هما : الطبقة العليا ، وتشمل الوندال وما اندمج فيهم من العناصر البربرية الأخرى مثل الآلان . وهذه الطبقة معفاة من الضرائب . والطبقة الثانية هي الطبقة الدنيا ، وتشمل جميع من

(١) Ganshoff, F.L., Feudalism, PP. 100-101 ; Seignbos, Ch., L'Europe Féodale (Hist. Générale), T. II, P. 1.

(٢) سعيد عاشور : أوروبا المصور الوسطى ج ١ ص ٧١ - ٧٢ و ٧٨-٧٩, Oman, PP. 7-8.

عدا الوندال من الرعايا ، وعلى هذه الطبقة كل الغرم . ومثل هذا التقسيم الجائر وجد في فرنسا في العصور الوسطى ، ولم يقض عليه إلا بقيام الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر (١) .

ومن حيث الجيش الوندالي ونظامه ، فالمعروف أن القوة الحربية عند الوندال كانت تتكون من الوندال أنفسهم ومن حلفائهم الذين ارتبطوا بهم أو اندمجوا فيهم مثل : الآلان الإيرانيين والهيروليين (٢) . الجرمان وبعض القوط وبعض السويف . اندمجت هذه العناصر بالوندال ، حتى لم يعد هناك تمييز بينها وبين الوندال . وبجانب هؤلاء البرابرة كان هناك فرقة من المغاربة دخلت في خدمة الوندال ، ولها رؤساؤها الوطنيون من المغاربة أنفسهم ، وكثيراً ما كان جزريك يرسل المغاربة سنوياً لغزو إيطاليا أو صقلية (٣) .

وامتلك الوندال قوة بحرية ضخمة ، أصبحت في وقت من الأوقات أخطر قوة بحرية في البحر المتوسط ، واكتسب بحارتهم خبرة بحرية ساعدتهم على بث الرعب والفرع عند سكان شواطئ هذا البحر ، ولو أن حروب الوندال البحرية كانت أقرب إلى القرصنة منها إلى الحرب المنظمة .

وبذل جزريك جهداً كبيراً في الأخذ بأساليب الجيش الروماني من حيث التنظيم ، فنظم جيشه على الأساس العشري ، كما يقول المؤرخ بروكبيوس ، وهو نظام قديم عرف في الشرق والغرب على السواء . واقتضى هذا التنظيم أن يكون على رأس كل فرقة مكونة من ألف محارب ضابط بلقب دوق Dux أو مقدم ألف Chiliarck أو Millenarii (٣) .

(١) Gautier, PP. 203-210 ; Hodgkin, PP. 259 ; Schmidt, P. 316.

(٢) الهيروليون أعظم القبائل الجرمانية وحشية ، وأقام بعضهم في أول الأمر عند شواطئ بحر أزوف شمال البحر الأسود (Lot, P. 52) .

(٣) Deanesly, P. 80 ; Hodgkin, P. 256 ; Schmidt, P. 320

أما سياسة الوندال الدينية ، فكانت متعصبة لمذهبهم الأريوسى ، ويعتبر الوندال فريدين بين البرابرة من حيث شدة التعصب (١) ؛ جاءوا إلى أفريقية وهم على المذهب الأريوسى منذ قرن مضى ، وكانت أفريقية فى تلك الفترة بيئة تتنازعها الأهواء الدينية مما سهل عليهم فتحها (٢) . فبدأت علاقتهم بالرعايا الكاثوليك سيئة منذ أول ، إذ لم يلبث جزريك ملك الوندال ، أن صادر أملاك الكنائس الكاثوليكية ونقلها إلى الكنائس الأريوسية (٣) . وكتب المؤرخ المعاصر فكتور فيتنس V. Vitensis رسالة عن الاضطهادات الوندالية "De Persecutione Vandalarum" وقال فيها : إن الوندال دمروا الكنائس والكتدراثيات والمقابر والأديرة ، وأحرقوا جميع بيوت العبادة ، وقتلوا الأساقفة ورجال الدين ، وأذاقوا من لم يقتلوه ألواناً مختلفة من العذاب ، كأن يفتحوا أفواههم ويتركونها مفتوحة بالأوتاد والخوابير، وقد يملأونها بالقاذورات، ووضعوا الصخور على ظهورهم ، وأهانوا النساء وكبار القوم وخطفوا الأطفال من أمهاتهم ، وهكذا . غير أنه مما لا شك فيه إن هذا المؤرخ كان مبالغاً فيما كتب إذ كان يكتب تحت تأثير قوميته وتمصبه لمذهبه ، رغم أنه معاصر ، حقيقة ارتكب الوندال الكثير من المنكرات ، شأن البرابرة المتسلطين واسترقوا بعض رجال الدين ونفوا الكثير منهم ، لكن من المبالغة أن نقول : إنهم قتلوا أسراهم أمام المدن المسورة ، فهناك خطر انتشار الأوبئة ، وهم يدركون تماماً أنهم أول ضحايا الأوبئة ؛ ويحتمل أن لكلمة الوندال والوندالية أو الوندلة 'Vandalism' علاقة بالاضطهاد الدينى أكثر من دلالاتها على الكراهة الجنسية لأولئك القراصنة ، وما اقترن باسمهم من تخريب وتدمير (٤) .

Lot, P. 89 ; Schmidt, P. 321

Gautier, PP. 199-200 ; Hodgkin, P. 265.

Oman, P. 9.

Deanesly, P. 79 ; Hodgkin, PP. 296-71.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

حاول جزريك أن يحول بعض الكاثوليك البارزين إلى المذهب الأريوسى ومن هؤلاء : الضابط سباستيان ، صهر بونيفاس ، الذى هام على وجهه فى الأرض فراراً من اضطهاد ايتيوس ، فأتجه إلى القسطنطية أولاً ، ثم إلى بلاط القوط الغربيين ، واستولى على برشلونة من الأمبراطورية الغربية ، لصالح ثيودريك ملك القوط الغربيين ، ولما ساءت علاقته مع القوط ، توجه إلى جزريك فى أفريقية حيث رحب به ، بعد أن اطمأن إليه ، وعينه فى منصب رفيع ، ولما كان سباستيان كاثوليكياً ، لم يطمئن جزريك إلى ولائه ، فدعاه يوماً إلى حضرته ، وعرض عليه اعتناق المذهب الأريوسى ، فأبى سباستيان فى أدب وشجاعة ومنطق ، غضب جزريك ، وأمر بإعدامه بعد ذلك (١) .

كذلك أعدم جزريك أربعة آخرين من الكاثوليك ، وهم من أصل أسباني ، أخلصوا لملك الوندال ، حتى صاروا من أقرب مستشاريه ، وهم : أركاديوس وبروبس Probus وباسكاسيوس Paschasius ويوتكيوس Euty chius ، وذلك على أثر رفضهم اعتناق المذهب الأريوسى ، وأظهر هؤلاء الضحايا شجاعة نادرة وصلابة محمودة فى الحفاظ على عقائدهم ، ولم تغرم الوعود بالثروة والجاه أما العاديون من الكاثوليك الذين يخدمون فى حكومة الوندال ، فلم يتعرضوا للاضطهاد العنيف الذى حل بكبار الكاثوليك ، مهما كانت خدماتهم للوندال .

لم يكن جزريك وخلفاؤه ، من بعده ، يعترفون إطلاقاً بحق الفرد فى اختيار العقيدة التى يؤمن بصحتها ، ويحتمل أن الوندال تعصبوا لمذهبهم خلال الجيل الأول الذى تلا الفتح مباشرة .

وبعد وفاة جزريك فى ٢٥ يناير ٤٧٧م ، خلفه ابنه هنريك ، زوج الأميرة

الرومانية أيودكسيا . ولما شعر هنريك بخطورة النزاع بينه وبين بيزنطة حول مصير أيودكسيا . فكر في إعادة هيئة الأكليروس الكاثوليكي في قرطاجنة عام ٤٨١م لكنه لم يلبث أن أدرك أنه لم يعد هناك ثمة ما يخشاه من جانب روما الشرقية (١) ، ولذلك تابع سياسية سلفه في اضطهاد الكاثوليك ، ولم يعبأ بتأثير زوجته فيه ، انتقم ممن كان يخشى خطرهم ، سواء أ كانوا داخل قصره أو خارجه من أتباعه وخدمه وحشمه من الكاثوليك . وعلق المؤرخ بروكبيوس على سياسة هنريك الدينية ، بأنه لم يكن هناك ملك اضطهد المسيحية بمثل القسوة التي عالجها هنريك إذ كان من بين وسائل الاضطهاد عنده الإحراق بالنار . وبمقتضى القرار الذي أصدره هنريك في ٢٤١ يناير من عام ٤٨٤م ، أمر بتطبيق جميع القرارات الانتقامية أو الاضطهادية التي كان أباطرة الرومان قد أصدروها ضد أصحاب المذاهب المخالفة ، إلا إذا تحولوا للعقيدة الرسمية الوندالية (الأريوسية) فطرد الكثير من الأساقفة ، الكاثوليك إلى جزيرة سردينيا ، واستخدم الأموال التي جباها من مصادرة أملاك الكنائس الكاثوليكية في بناء كنائس أريوسية جديدة ، وفصل الموظفين الكاثوليك من مناصبهم ، وفرض غرامات مالية على جميع الكاثوليك ، كل بحسب ثروته ومكانته ، وكلف الأريوسيين بتنفيذ قراره التعسفية . ولم تجد احتجاجات الإمبراطور البيزنطي واحتجاجات البابا (٢) .

خلف هنريك حاكماً كان أكثر اعتدالاً منه ، هما الأخوان جوثاموند (٤٨٤ — ٤٩٦ م) ، ثراساموند Thrasamund (٤٩٦ — ٥٢٣ م) . لقد اضطهد جوثاموند الكاثوليك ، ولكن على نحو أقل قسوة وعنفاً من هنريك ، ومن بين من لقوا الاضطهاد على يديه أعظم الشعراء المعاصرين يومئذ دراكونتيوس Dracontius ، إذ سجن هذا الشاعر لأنه تغنى

Deanesly, P. 80 ; Schmidt, P. 311.

(١)

Gautier, PP. 201-203 ; Schmidt, P. 312

(٢)

بمحمّد الإمبراطور الشرقى زينو Zeno وإن لم يفصح عن اسمه (١). غير أن جونتاموند لم يلبث أن أعاد فتح الكنائس الكاثوليكية في عام ٤٨٧ ، رغم أن بعض الأساقفة الكاثوليك ظل منفيًا في جزيرة سردينية (٢). وازدادت سياسة اللين والاعتدال زمن تراساموند ، الذى يعتبر الملك الوحيد بين الملوك الوندال ، الذى ظفر بتمجيد معاصريه من الإغريق واللاتين ، فهو فضلًا عن ثقافته الممتازة وبروزه فى الخطابة والخلق الحسن ، كان حليف ثيودريك العظيم ملك القوط الشرقيين ، ومتزوجًا من أخته ، أمالافريدا Amalafriada (٣) وكان المعروف عن ثيودريك فى ذلك الوقت ، إنه متسامح مع الكاثوليك ، فكذلك كان ملك الوندال حليفه وزوج أخته (٤) .

أما الملك هلدريك بن هنريك ، الذى حكم فى الفترة ما بين ٥٢٣ و ٥٣١ م ، فأمه أبودكسيا البيزنطية ، وكان قد مكث مدة طويلة فى القسطنطينية ، بلغت نحو ٤٠ سنة ، تشبع خلالها بالمدينة الرومانية والثقافة الرومانية ، ولذلك برهن على أنه ملك رومانى أكثر منه وندالى . عطف على الكاثوليك ، حتى قيل عنه فاق عطفه على كاثوليكية أمه عطفه على أربوسية أبيه : من أجل ذلك بدا هلدريك غريبًا وسط قومه ، ولما كان معروفًا بالجن فضلًا عن تقدمه فى السن ، خشى تراساموند قبل وفاته أن ينقض هلدريك سياسة أسلافه المتعصبة ، وإن عرف تراساموند نفسه بالتسامح ، إلا أنه أوصى هلدريك ألا يعيد الكنائس الكاثوليكية إلى أصحابها ، لم يستمع هلدريك لهذه الوصية ، بل أمر بإعادة الكنائس الكاثوليكية بأساقفتها إلى ما كانت عليه ، أكثر من ذلك أمر بسجن أمالافريدا

Bury, P. 125.

(١)

Deanesly, P. 81.

(٢)

(٣) زفت أمالافريدا إلى ملك الوندال فى موكب فخم ، وجاءت إلى أفريقية وفى صحبتها

بعثة شرف من ألف محارب من نبلاء القوط .

Deanesly, P. 81 ; Bury, P. 125.

(٤)

أخت ملك القوط الشرقيين ، وهي الأميرة الأريوسية العظيمة ، ثم أمر بإعدامها .
وفي عام ٥٣١ م عزل هلدريك وسجن ، وخلفه جليمر Gelimer الذى
قضى عليه بلزاريوس (١) .

بعد مقتل الأمبراطور ماكسيموس فى عام ٤٥٥ م ، ونهب روما على
يد جزريك فى ذلك العام ، كان المتحكم الفعلى فى الأمبراطورية الغربية المتدهورة ،
القائد أفيتوس Avitus ، وهو الذى تمكن من الوصول إلى منصب الأمبراطور
الشاعر يومئذ ، لكنه لم يلبث أن طرد على يد القائد ريكمر Ricemer ، الذى
أشتهر فى ذلك الوقت على أثر تحطيمه لأسطول وندالى يتكون من ٦٠ سفينة ،
هاجم جزيرة كورسيكا فى عام ٤٥٦ م (٢) .

وتم اختيار مايوريانوس Majorianus فى عام ٤٥٧ م ، من أعظم
الأباطرة المتأخرين الذين حاولوا إنقاذ الأمبراطورية الغربية من الأخطار المحدقة
بها ، انعدت الآمال عليه ، لوقاية الأمبراطورية من أخطر أعدائها الخارجين
فى ذلك الوقت ، وهو جزريك ، إذا كان ملك الوندال ، لقوته ، وصفاته ، وموقع
دولته ، أخطر عدو يهدد إيطاليا .

لم يكن الوندال قد كفوا عن أعمال الغزو والنهب والقرصنة ، فقد جاء
أسطول وندالى مغربى فى مطلع حكم الأمبراطور مايوريانوس ، واقتحم رجاله جنوى
إيطاليا وأخذوا ينهبون المنطقة حول نهر جارليانو Garigliano فأسرعت الجيوش
الأمبراطورية وفاجأت الوندال فى منطقة كامبانيا Campania . وأعملت فيهم السيف ،

(١) Lot, Les Invasions, P. 142 ; Deanesly, P. 82 ; Schmidt, P. 314,320.

Hist. History, P. 605.

(٢)

حتى قتل الكثير منهم ، ومن بين القتلى القائد الوندالي نفسه ، زوج أخت جزريك لم يكتف الأمبراطور مايوريانوس بهذا النصر ، بل صمم على غزو الوندال في أفريقية ، والقضاء عليهم نهائياً . ويدل هذا المشروع الخطير على جرأة وشجاعة الإمبراطور مايوريانوس ، ولو قدر لهذا الأمبراطور أن ينجح في بث الروح العسكرية في الشبيبة الإيطالية ، إذاً لا استطاع أن ينازل جزريك ، على رأس جيش من الطراز الروماني القديم ، غير أنه لسوء الحظ ، الذي لازم الأمبراطورية الغربية في أواخر أيامها ، أنه وقع في أسوأ ما وقع فيه أسلافه من خطأ ، عندما استعان بالبرابرة ، وأحلهم محل الرومان ؛ ومع ذلك فله في هذا واسع العذر ، بعد أن وضع له ضعف الروح الحربية عند الرومان ، وأن الأخطار المحدقة به لا تحتمل التأخير (١) .

استهوت سياسته ونشاطه وشهرته ، الشعوب البربرية الضاربة حول نهر الدانوب ، من البورستينيين Borysthenes والتانيين Tanais والجبيديين Gepidæ والقوط الشرقيين والروجيين Rugii والبرجنديين والسوييف والآلان ، فانتالت حشود هؤلاء جميعاً على إيطاليا ، وقادهم الإمبراطور بنفسه ، وكانوا في الواقع مفرقين ، تمزق صفوفهم الشحنةاء والانقسامات ، وذلك كله يرجع إلى أنهم من عناصر مختلفة وأهواء متباينة ولهم مطامع متنوعة ؛ عبرت هذه القوات جبال الألب في البرد القارس ، وكان الأمبراطور ، بين حين وآخر ؛ يسر غور الثلج برمحه الطويل ، ويشجع السكيثيين Scythians الذين أظهروا ألمهم من قسوة البرد ، وذلك بتجديد وعوده إليهم وإلى غيرهم ، وأنهم جميعاً سوف يعرضون عن ذلك العناء ، بدفء شمس أفريقية .

امتلات معسكرات مايوريانوس بالبرابرة الخلفاء ، ويظاهرة الشعب الروماني بحماسة وولائه نحو الإمبراطور ، الذي اعتقدت عليه الآمال ، أدرك الأمبراطور

بثاقب نظره ، استحالة فتح أفريقية والسيطرة عليها ، ما لم يكن أسطوله البحري قوياً كافياً ، وتذكر أنه خلال الحرب البونية الأولى ، أن جمهورية روما فطنت لأهمية القوة البحرية ، وأنها استطاعت بفضل حماس أبنائها أن تعد أسطولا قوياً في خلال ستين يوماً ، بعد أول ضربة ضربها أبنائها لقمص الأخشاب من الغابات ، وأن تنزل في البحر ١٦٠ سفينة .

ورغم اختلاف الأحوال ، زمن الجمهورية الرومانية ، وخلال النصف الأخير من القرن الخامس الميلادي ، فإنه نجح في حشر العمال الرومان في غابات الابنين لقطع الأخشاب ، وفي إصلاح دور الصناعة في رافنا وميسنوم Misenum ؛ كذلك عاينته بلاد الغال ، في مشروعه الضخم ، ولم يلبث أن تجمع للامبراطور ماريوريانوس أسطول مكون من ٣٠٠ سفينة ، امتلأت به ميناء قرطاجنة الجديدة في أسبانيا (١) .

ويدل هذا النشاط المنقطع النظير ، أن الأمبراطور ماريوريانوس ، كان من خير ما تمخضت عنه حوادث العهد الأخير من الأمبراطورية الغربية ؛ كان ماريوريانوس يتحرق شوقاً للنصر ، ويمد عدته له . ويذكر المؤرخ بروكبيوس أن الأمبراطور أراد أن يقف بنفسه على قوة الوندال ، قبل المغامرة بمشروعه الكبير ، فتنكر بصبغ شعره ، وزار قرطاجنة عاصمة الوندال ، بوصفه سفيراً للامبراطور ، فلم يعبا به جزريك وبسفارته وطرده ، ولما علم بعد ذلك بحقيقة أمره ، حزن أشد الحزن على إفلاته من بين يديه ، ومثل هذه القصة قد تكون أسطورة غير تاريخية ، إلا أن مثل هذه الأساطير لا تنسج إلا في حياة الأبطال (٢) .

Hist. History, P. 608 ; Hodgkin, P. 426.

Hodgkin, PP. 428-29.

(١)

(٢)

لم تخف عبقرية مايوريانوس عن جزريك ، كما لم يحمل ملك الوندال نوايا
الأمبراطور الروماني نحو الوندال ، وما أعده من استعدادات وخطط . ولذا صمم
جزريك على اصطناع الحيلة واستخدام الخديعة ، ولا سيما وأن ملك الوندال كان
غير مطمئن إلى شجاعة رعاياه الذين أضعفهم ما آلوا إليه من ترف في الجو الدفاعي
الأفريقي ، كما أنه كان يشك في ولاء المغلوبين الذين لم يعنبروه سوى طاغية
أريوس ، فضلاً عما أصاب بلادهم من تخريب ومصادرة ومظالم ، كان جزريك
على يقين من أن الرومان يستطيعون أن ينزلوا في أية بقعة على الساحل ؛ ولذلك
رأى أن يصطنع الحيلة ، ويتقدم طالباً الدخول في مفاوضات الصلح ، وبعث
إليه سفارة تطلب منه المهادنة والصلح : فرفض الأمبراطور مايوريانوس (١) .
متمسكاً بالبدا القديم القائل بأنه لا أمان لروما طالما كانت قرطاجنة في يد الأعداء .

استطاع جزريك أن يفلت مما أعده له خصمه العنيد ، بعد أن فشلت
خديعته ، فاستعان ببعض الخونة من رعايا الأمبراطور ، أولئك الذين حز
في نفوسهم نجاحه وشهرته ، وفاجأ جزريك جزءاً من الأسطول الروماني في خليج
قرطاجنة الجديدة بأسبانيا قبل أن يتحرك ، وأغرق أكثره أو أحرقه ، وذلك
في مايو ٤٦٠ ؛ وبذلك دمرت استعدادات ثلاث سنوات في يوم واحد (٢) .

ولقد دل سلوك كل من الخصمين القويين ، بعد هذه الكارثة ، على أنهما
قادران على المثابرة كل في مشروعه ، فلم ييأس الأمبراطور ، كما لم ييباه الوندال
بهذا النصر السريع الغادر . جدد الوندال مفاوضاتهم من أجل الهدنة والصلح ،
وفي هذه المرة ، وافق الأمبراطور ، حتى تتاح له الفرصة لإصلاح أسطوله وإعادة
بناء قوته لمعاودة الكرة ؛ ومن ثم عاد الأمبراطور مايوريانوس إلى إيطاليا ليتابع
جهوده من أجل بلاده . كان الأمبراطور يدرك تماماً سلامة موقفه وتصرفاته ،

Gautier, P. 248.

(١)

Gautier, P. 248 ; Hist. History, P. 609 ; Oman, P. 9.

(٢)

ونزاهة أهدافه ، ولكن الشيء الذي لم يخطر له على بال ، هو تلك المؤامرات التي كانت تحاك حول عرشه (١) .

حدث أن زعزعت كارثة قرطاجنة ، ذلك المجد الذي تمتع به الأباطور مايوريانوس ، بسبب انتصاراته وتوفيقاته ، والواقع أن الحكومة الأباطورية في روما ، كانت منهارة ، ففيها الكثير من رجال الحرب والسياسة ، الذين لا يفيدون إلا في جو المؤامرات وخلال أحداث العتن ، فلم يتمخض عمله الدائب في تطهير أداة الحكم ، إلا عن قيام مؤامرة ضده ، نسج خيوطها ريكمر ، أثار البطريق ريكمر أحقاد البرابرة ضد الأباطور بحجة أنه لم يمد صالحاً لحكم الأباطورية . وسرعان ما ثار البرابرة ضد الأباطور ، وأجبروه على التنازل عن العرش ، وبعد ذلك بخمسة أيام أشيع موته ، بسبب مرض الدوسنتاريا ، والحقيقة أن ضباط القائد ريكمر ، قبضوا عليه ونزعوا عنه شارة الملك وقطعوا رأسه في ٧ أغسطس ٤٦١ م (٢) . وبمقتل مايوريانوس ، انقطع آخر خيط في أمل انقاذ الأباطورية ، أو على الأقل في تأجيل سقوطها إلى حين .

أضحى ريكمر الحاكم بأمره في الغرب ، واختار لنفسه أن يكون صانعاً للأباطرة ، دون أن يكون هو امبراطوراً ، ولم تكن الحال في الشرق خيراً منها في الغرب ، إذ كان المتحكم فيها يومئذ القائد أسبار Aspar الآلاني الأريوسي ؛ اختار أسبار لعرش الأباطورية في الشرق اشباداره ليو الأول (٤٥٧ — ٤٧٤ م) ليكون طوع أمره ، لسكنه جاء على غير ما كان يتوقعه أسبار ، إذ عمل على تدعيم مركزه في الداخل والضرب على أيدي أسبار لكي يتفرغ لقهر الوندال ، بعد أن ظهر عجز الأباطورية الغربية بعد مايوريانوس ؛ ولم ير أسبار من وسيلة

Deanesly, P. 77 ; Villari, P. 129.

(١)

Hist. History, P. 609.

(٢)

للانتقام من الإمبراطور الذي عينه ، سوى الاتصال سرّاً بجزريك الوندالي ،
لاتفاقهما معاً في المذهب الأريوسي فضلاً عن تشابه المصالح (١).

وبعد أن نجح ليو في تحرير نفسه من استبداد أسبار ، بتكوين قوة حربية
ضاربة من الأيسوريين الأسيويين ، لموازنة قوة أسبار ، استجاب لآلام الإيطاليين
وتوسلاتهم لإنقاذهم من خطر الوندال ، وأعلن على الفور تحالفه مع الإمبراطورية
الغربية ضد الوندال ، لكنه لم يعترف بالإمبراطور ساويرس (٤٦١ — ٤٦٥ م)
الذي عينه ريكمر خلفاً لمايوريانوس ، وظاهره في ذلك حاكماً العال والماشيا .

ولمات الإمبراطور ساويرس ، بعد أربع سنوات صاخبة ، ظل ريكمر
صاحب السلطة الفعلية نحو أكثر من سنة . لكنه اقتنع خلال هذه الفترة ،
باستحالة قهر الوندال دون الاستعانة بقوة بيزنطية بحرية ، لذلك اتفق مع السناتو
الروماني للتقدم إلى الإمبراطور ليو ليختار إمبراطوراً للغرب ، فاختار لهم
انثيموس Anthemius (٤٦٥ — ٤٧٢ م) (٢).

اتفق الإمبراطوران على إنقاذ الغرب من خطر الوندال ، وعاد الأمل قوياً ،
بفضل هذا الاتحاد ، في استعادة أفريقية والنفوذ الروماني في البحر المتوسط (٣) .
أعد ليو أسطولاً ضخماً في عام ٤٦٨ م ، أنفق على إعداده أموالاً ضخمة
وجهداً مضنياً ، وكان هذا مما شجع ماركليينوس Marcellinus حاكم الماشيا
على إعلان ولائه للإمبراطور انثيموس ، فقام على رأس أسطول من مثله ، وأنزل
هزيمة بالوندال واستخلص منهم جزيرة سردينيا وصقلية مؤقتاً (٤) ، وفي نفس

(١) Hist. History, P. 611.

(٢) الإمبراطور انثيموس هو ابن بروكوبيوس ، من أصل شريف ، ويمتاز بالخلق
والفضائل ، وكان من أعظم حكام الشرق ، تزوج من يوفيميا Euphemia ابنة الإمبراطور
مارقيان ، فكانت هذه المصاهرة من أسباب ترقيته السريعة إلى كونت فقاند عام ٤٦١ م ،
يضاف إلى ذلك مجده الحربي الذي حققه بانتصاراته السابقة على الهون عند الدانوب .

(٣) Gautier, PP. 252-53.

(٤) Hodgkin, P. 447.

الوقت ، نزل هرقل Heraclius القائد البيزنطي على شاطئ أفريقية في طرابلس واستعاد بعض المدن من أيدي الوندال ، ثم تقدم نحو قرطاجنة ليلتقي بالجملة الأساسية التي جاءت إلى قرطاجنة عاصمة الوندال (١) .

نزلات القوات البحرية الضخمة عند رأس بون Bon ، على بعد نحو ٤٠ ميلاً من قرطاجنة ، وكان لواء القيادة العليا معقوداً للقائد البيزنطي بازيلسكوس Basiliscus ابن زوجة الإمبراطور ليو . جاء نزول القوات البيزنطية الرومانية على الساحل الأفريقي مفاجأة مزعزعة للثقة في قلب جزيريك ، حتى أسرع يطلب الدخول في مفاوضات الصلح ، بأي شروط يملئها الرومان ، وطلب هدنة لمدة خمسة أيام ، لإتمام شروط الصلح ، والواقع أن ملك الوندال لم يكن يهوى إلا إلى كسب بعض الوقت لإعداد نفسه ، ولإيجاد انقسام بين قادة الجملة الرومانية ، حول ما عرضه ملك الوندال ، وفي كلا الحالين يستفيد جزيريك . استجاب بازيلسكوس لخديعة جزيريك ، إما لأنه قصير النظر سىء التدبير ، وأما لأن أوامر سرية وصلته من أسبار الخوّد على الإمبراطور ليو ، وكان بازيلسكوس بطمع في العرش البيزنطي ، وإما لأن الوندال رشوه بكمية كبيرة من الذهب . وأياً كانت الأسباب ، فإن حيلة جزيريك جازت على القائد الروماني ، وتمكن جزيريك خلال الخمسة أيام التي جرت فيها المفاوضات ، أن يستعد استعداداً عاجلاً ، وفي جنح الليل حشد حراقاته بالقرب من أسطول الرومان ، وفي مكان تسهل الحركة فيه ، أشعل فيها النيران وأرسلها إلى سفن الرومان فاحتكت بها ، وأشعلت النيران فيها ، وحينئذ هجم الوندال هجمة صادقة ، استولوا فيها على سفن المون الرومانية ، وأغرقوا أكثر الأسطول ، فكانت خسارة الرومان فادحة ، وقعت هذه الكارثة في ربيع عام ٤٦٨ م (٢) .

(١) Gantier, P. 250

(٢) Hodgkin, PP. 446-50 ; Hist. History P. 613 ; Gantier, PP. 252-8.

لم يستطع القائد بازلسكوس أن يعمل شيئاً ، سوى النجاة بنفسه والعودة سريعاً إلى القسطنطينية ، حيث لجأ إلى كنيسة أياصوفيا ، إلى أن ظفر بالعمو ، ونجا من حكم الإعدام . وفشل إذن مشروع القضاء على الوندال .

وخلال الفترة من ٤٦٨ — ٤٧٦ م كانت الأمبراطورية الغربية قد بلغت ذروة الاضطرابات والفوضى ، فولياها عدد من الأباطرة الأشباح ، كانوا صنيعاً صناع الأباطرة أمثال ريكور وأورستيز ، ومن هؤلاء الأباطرة ، أوليبريوس Olybrius حوريكور ، ولاء الأخير بعد أن قتل أنثيميوس في عام ٤٧٢ م ، ولما كان أوليبريوس متزوجاً من بلاسيديا التي أعادها جزريك إلى القسطنطينية فقد طمع جزريك في صداقة الرومان عندما ولي أوليبريوس العرش ، ومن أجل ذلك أوقف جزريك غزواته على بلاد الإغريق ، وأعلن أن « اللعنة حلت على إيطاليا فقط » ؛ فتكررت صوائغه على إيطاليا وصقلية ، وكانت أهدافه هي القرى والمدن غير المسورة ، خشية من وجود الحاميات القوية في المدن الكبرى (١) . ولما قتل أوليبريوس في ذلك العام ازدادت أحوال الأمبراطورية اضطراباً إلى أن سقطت نهائياً في عام ٤٧٦ م على يد أدواكر وأصبح زينو أمبراطور الشرق هو الأمبراطور الوحيد على شطري الأمبراطورية (٢) .

وفي أوائل عام ٤٧٧ م ، أي بعد نصف سنة فقط من سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب ، ويعد طرد الأمبراطور أغسطوس آخر الأباطرة في الغرب ، مات جزريك ملك الوندال ، بعد أن ظل نحو نصف قرن ، الشيخ الخفيف للرومان ، ولكنه مات بعد أن ماتت الأمبراطورية الغربية نفسها ، وسرعان ما تدهورت مملكة الوندال من بعده ، ولم يكده يمضي أكثر من نصف قرن

(١) Hodgkin, PP. 516-36 ; Villari, PP. 148-9.

(٢) أنظر : نهاية الأمبراطورية في الغرب للمؤلف (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة - العدد الثلاثين ١٩٦٢)
Souttar, P. 335.

بقليل ، بعد وفاة جزريك ، حتى أضحت دولة الوندال فريسة سهلة للاقتناص أمام الأمبراطور الشرقى يوستانيوس .

ماتت عظمة الوندال وقوتهم بموت جزريك ، رغم ما خلفه من أسطول ضخم قوى ، وخزانة مليئة بالأموال ، فضلاً عن القصر الرائع التي تزينه التحف المنهوبة من روما . لم يستطع خليفته من بعده أن يفيد مما خلف سلفه . كما لم تستطع أيودكسيا البيزنطية زوجة هنريك أن تحمله على التخفيف من حدة تعصبه ضد الكاثوليك ، وقد هربت زوجته هذه من قرطاجنة بعد أن عاشت معه ١٦٤ سنة وأُجبت له ولدين ، هربت سرّاً إلى القدس حيث ماتت (١) .

كان على الأمبراطورية الشرقية أن تصفى حسابها مع الوندال ولاسيما وقد أصبحت هذه الأمبراطورية هي المسئولة الوحيدة عن مصائر الرومان ومصالحهم في الشرق والغرب ، ولم ينقطع الوندال خلال تلك الفترة ، أي منذ وفاة جزريك حتى قيام يوستانيوس في العرش ٥٢٧ م ، عن مهاجمة شواطئ البلقان وشرقي البحر الأبيض ، وكان سلف يوستانيوس وخاله جستين الأول (٥١٨ - ٥٢٧ م) قد وجه أنظار الكاثوليك المضطهدين من رعايا ملوك الجرمان الأريوسيين عامة إلى الشرق ، وجاء خليفته بمشروعه العظيم لإعادة الأمبراطورية الرومانية وإحياء السيطرة الرومانية Roman Imperium . فضلاً عن إحياء الروح الرومانية Romanitas (٢) . واستعادة أفريقية الوندالية جزء حيوي في هذا المشروع الضخم .

كان الوندال يشكلون الخطر الحقيقي على الأسطول البيزنطي في البحر الأبيض ، وانتهز يوستانيوس فرصة عزل الملك الوندالي هلدريك (٥٢٣ - ٥٣١ م)

Oman, PP. 10-11 ; Lot, La Fin, P. 289.

Diehl & Marçais, PP. 54-55 ; Deanesly, P. 82.

(٣)

(١)

وهو الملك الذي تجرئ في عروقة الدماء البيزنطية (١) . وأعد عدته للتدخل ، فأنهى ما هنالك من مشاكل ، بأن عقد صلحاً مع كسرى الأول الفارس ٥٣٢م وأخذ نيقية Nika في نفس السنة (٢) ، ورغم الإرهاق الذي لقيه الجنود البيزنطيون في الحرب الفارسية ، فضلاً عن النفقات ، هناك عوامل شجعت الأباطور بوستانوس على تنفيذ مشروعه ، منها أن التجار الأغر يق صاحوا بضرورة الحرب مع الوندال ، كما أن أسواق الوندال أنفسهم كانوا يؤكدون أن أهل الولايات على تمام الأهمية لمساعدة جيوش الأباطورية ، ولعل هذا من أهم العوامل التي شجعت بوستانوس ، على المضي في خطته ، يضاف إلى ذلك : تلك الثورة الوطنية التي قامت في طرابلس ، ضد سيادة الوندال ، وتزعّمها بودنتيوس Pudentius ، زمن جليمر ، آخر ملوك الوندال ، وكان زعيم الثورة على اتصال بالأمبراطور الشرقي ، وجاءته فعلاً فرقة حربية صغيرة من قبل الأمبراطور ، وانزكب ملك الوندال غلطة كبرى في أنه لم يعمل على قمع الثورة والقضاء عليها ، ومعنى هذا ، أن جيوش الأمبراطور سوف تنزل في أرض (صديقة) (٣) .

وقبل هذا الحادث بقليل ، ثار الحاكم الوندالي في جزيرة سردينيا وأعلن استقلاله عن قرطاجنة ، وكان هذا الحاكم قوطياً دخل في خدمة الوندال ، اسمه جوداس Godas ، فلما علم بمشروع الأمبراطور بوستانوس ، أعلن خضوعه له ، فأرسل جليمر حملة قوامها خمسة آلاف محارب و ١٢٠ سفينة ، لقمع الثورة وهذا ما حرّمه من خدمات هذه الحملة في صد جيوش الأمبراطور ، كما حرّمه من معظم سفن الأسطول الوندالي وأحسن البحارة (٤) . هذا وهناك العداء الذي

Diehl & Marçais, PP. 64-67.

Ibid.

Bury, II, P. 128.

Ibid ; Diehl et Marçais, P: 66

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

الذي استحكم في ذلك الوقت بين الوندال والقوط الشرقيين ، نتيجة سنجون^(١) امالافريدا Amalafriدا القوطية، زوجة تراساموند ملك الوندال السابق ، فقد سجنها الوندال بعد وفاة زوجها وقتلها مما أدى إلى قطع علاقة الصداقة بين القوط الشرقيين في إيطاليا وبين الوندال في أفريقيا ، أي بين بلاطى رافنا وقرطاجنة^(٢) . ولذلك ساعد القوط الشرقيون على اقتلاع الوندال وإبادتهم ، وذلك بوضع موانى صقلية تحت تصرف الجيوش الأمبراطورية^(٣) .

تذلت أذن جميع مصاعب يوستانيوس ، ولا سيما مشكلة تأمين طريق المواصلات وخط السير . رسمت الخطة على أساس إنزال جيوش الفتح أو إعادة الفتح الرومانى لأفريقية Reconquesta ، على الشاطئ قرب قرطاجنة^(٤) . أبحرت قوات الأمبراطور يوستانيوس من القسطنطينية في ٢٢ يونيو من عام ٥٣٣ م ، وعلى رأسها كونت بلزاربوس. أقدر قواد الأمبراطورية ويليه في القيادة العامة القائد الأرمنى الكف. حنا Joannes^(٥) ، وبازك البطريق هذه الحملة قبيل إبحارها^(٦) . بلغت عدة سفن النقل ٥٠٠ سفينة ، وعليها عشرة آلاف من الجنود الرجال وخمسة آلاف من الفرسان ، هذا بالإضافة إلى فرقتين من الرماة المعاهدين (Laeti, Foederati) من الهون وعددهم ٦٠٠ محارب، ومن الهيرولين Heruli وعددهم ٤٠٠ مقاتل^(٧) ، صاحب كونت بلزاربوس في حملة . زوجته أنطونيا ومستشارة المؤرخ بروكبيوس Procopius ، أحد قادة الفكر في بيزنطية في القرن السادس الميلادى^(٨) ؛ وكذلك رئيس حرس

Villari, P. 197.

(١)

Bury, II, P. 129.

(٢)

Deanesly, P. 83.

(٣)

Villari, P. 198.

(٤)

Bury, II, P. 129.

(٥)

Oman, PP. 76-77 ; Bury, P. 127, Lot, Les Invasions, P. 142 ; Schmidt, P. 315.

(٦)

(٧) بروكبيوس من مؤرخى القرن السادس الميلادى ، صاحب الحملات البيزنطية ضد فارس

والوندال والقوقاس الشرقيين ، ووضع كتباً عن هذه الحروب مثل :

De Bello Vandalorum etc... (Bury, PP. 129, 143)

بلزار يوس الخصاص وهو الخصى سولومون العراقي الأصل ، ومن أقدر الخصيان وأشجعهم ، وهو الذي ولي افريقية بعد القضاء على الوندال (١) .

ركب بلزار يوس وزوجته ومستشاره ورئيس حرسه في سفينة القيادة Navis Praetoria ، ولقى الجيش مصاعب جمة خلال رحلته ، من ذلك عواصف في بحر ايجيه ، ونفاد الماء العذب الطازج ، ويذكر بلزار يوس أن سفينة القيادة لم تشك قلة المياه نظراً لمهارة زوجته في طريقة حفظ الماء ، إذ كانت خزنت المياه في أواني زجاجية في أسفل السفينة وغطتها بالرمال ، ومن ثم بقي الماء طازجاً بارداً (٢) . وعند صقلية ، وقف الأسطول البيزنطي قرب سرقوسة ، حيث أخذ حاجته من التموين (١) ، فضلاً عن الأخبار الخاصة بالعدو ، وهذه جمها بروكيوس عندما نزل إلى الجزيرة . وعلم أن الوندال مشغولون في إخماد ثورة سرينيا ؛ استأنف بلزار يوس رحلته ، وساقته الرياح إلى رأس فادوا Caput Vada أوراس كبوديا على بعد ١٦٢ ميلاً من قرطاجنة ، ونحو ٦٦ ميلاً جنوبي هادروميتوم Hadrumetum (سوسة) ، ويقول بروكيوس إن المسافة بينها وبين قرطاجنة تستغرق خمسة أيام سيراً على الأقدام (٢) .

وقبيل نزول بلزار يوس وجيشه إلى البر ، عقد مجلساً حربياً على سفينة القيادة ، وناقش خطط الهجوم على قرطاجنة ، وفي الشهر الثالث منذ خروجهم من القسطنطينية ، نزلوا على الساحل الأفريقي في سبتمبر ٥٣٣ م ، واتخذت القوات البيزنطية أماكنها في معسكرات محاطة بالأسوار ، ومن بين الأسوار سور من الأوتاد والخوابير ، تم ذلك في سرعة فائقة ، وفي يوم واحد . وكان معسكر البيزنطيين بالقرب من بئر فيها مياه كافية لتموينهم وتموين خيولهم بالماء ، مما كان من أكبر

Ibid.

Deanesly, P. 82.

(٣) من المحتمل أن جزيريك كان قد عقد معاهدة مع أدراكر قبل وفاته عام ٧٧ ؛ تنازل بها من معظم جزيرة صقلية ونظير أن يدفع له أدراكر جزية سنوية H. Oman, P. 10. odaku, P. 256

Bury, II, P. 130.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

العوامل التي ساعدت على نجاح الحملة . أمضى بلزاريوس وجيشه ليلة للراحة والاستجمام ، وكان يتولى الحراسة على كل سفينة خمسة عشر من الرماة الأفذاذ .

وفي اليوم التالي تقدم بلزاريوس ، وأوصى رجاله بعدم التعرض لقمح أهل الولايات وثمارهم بأي أذى ، مذكراً إياهم بأن الأفريقيين ليسوا سوى سلالة الرومان الأوائل ، وهم يكرهون الوندال أشد الكراهة ؛ ثم طمأن بلزاريوس الأفريقيين بقوله ، أنه على وشك أن يزيح عنهم هذا الكابوس الطاغى .

أرسل بلزاريوس فرقة من ثلاثمائة فارس بقيادة حنا الأرمني للاستطلاع ، وكذلك فرقة من الهون من ٦٠٠ فارس للمسير على جانب طريق الزحف لحماية الجيش من هجوم مفاجيء أو كمين ، واستولوا على أول مدينة وهي سيلكتم (Selekta) Syllectum بدون أى مقاومة أو حرب ، بل أخذوها بالخدعة والحيلة ، إذ كان المشرف على خيول الوندال فيها ، قد سلم الخيول إلى بلزاريوس فكافأه بكمية من الذهب ، وسلمه رسالة الإمبراطور إلى زعماء الوندال ليقرأها عليهم ومضمون هذه الرسالة : « أن غرض الجيش الروماني ليس حرب الوندال ، وأنه يريد نقض المعاهدة التي أبرمها جزريك (٤٧٦م) ، ولكن الهدف الوحيد هو إزالة حكم الطاغية (جليمر) الذي استخف بوصية جزريك وسجن ملك الوندال (هلديريك) وقتل أقرباءه وسمل عيون الباقيين ، وآثر إبقاءهم لتعذيبهم ، ولذلك انضموا إلينا لإنقاذكم وتحريركم من حكم الطاغية ، وسوف نفعمون بالأمن والحرية ونعاهدكم أمام الله ، بأننا سوف نحقق لكم هذه الوعود » (١) .

ولكن الرجل الوندالي الذي تسلم الرسالة ، لم يستطع أن يقرأ الرسالة على الملأ ، واكتفى بعرضها سراً على أصدقائه الذين يثق فيهم ، ومن ثم لم تكن لها أية نتيجة . وعندما تقدم بلزاريوس ، ساعده الأهالي بالموثون ، ومراجيش في طريقه

بالمدين : تابوس ، ولبده وسوسه ، ثم إلى جراس Grasse حيث يوجد قصر
بحديقة جميلة لملك الوندال ، ومكان هذا القصر حالياً « سيدى خليفة » . كان
جليمر فى ذلك الوقت فى مدينة هرميان Hermiane بولاية بيزا كينا ؛ ولما علم
بتقدم الزحف الرومانى ، بعث برسالة سريعة إلى أخيه أماتاس Ammatas
فى قرطاجنة ، يأمره بقتل هلدريك ومن معه بالسجن ، والاستعداد بكل قواته
لمهاجمة الرومان ، وكان جليمر يريد أن يحاصر الرومان قرب تونس (١) .

وفى ١٣ سبتمبر ٥٣٣ م ، التقى بلزاريوس بجيش جليمر الوندالى ، وهزمه على
بعد عشرة أميال جنوبى قرطاجنة ، فى موضع اديكيم Ad-Decimum ، فهرب
جليمر إلى نوميديا غرباً ، ولم يلق الكونت بلزاريوس صعوبة تذكر فى الظفر
بهذا النصر السريع ، حتى أنه تمكن فى أمسية ذلك اليوم ، أن يتوجه إلى
قرطاجنة مع زوجته ، حيث كان الهدوء يسودها ، ولم تكن هناك أية عقبة تحول
دون دخوله فيها ، إذ كان القرطاجانيون قد فتحو أبواب مدينتهم ، بعد أن شاع
هرب ملك الوندال ، وإضاءوا المصابيح ، حتى بدت المدينة فى تلك الليلة كأنها
فى عيد (٢) .

أما الوندال المقيمون فى قرطاجنة ، فقد لجأوا إلى الكنائس يتضرعون فيها
فيها إلى الله ، لم يدخل بلزاريوس المدينة فى ذلك الوقت خشية أن يكون بها
كفين ، وفى اليوم التالى وصلت سفنه إلى ما ندركيوم Mandracium — ميناء
قرطاجنة — وأزال المرشدون القرطاجانيون السلاسل من مدخل الميناء ، وأفسحوا
الطريق حتى دخلت السفن .

وفى ١٥ سبتمبر ، دخل بلزاريوس قرطاجنة ، وأمر رجاله بعدم التعرض

Ibid PP. 130-32 ; Diehl et Marçais, P. 66.

Oman P. 78 ; Gautier, P. 309

(١)

(٢)

للسكان بأي أذى ، فحسبهم ما قاسوه زمن الوندال ، ودخل قصر جليمر وجلس على عرشه (١) . ويصف بروكبيوس الحفل الذي أقامه بلزاريوس ، ابتهاجاً بالنصر ، في قاعة الحفلات بالقصر الملكي الوندالي ، حيث اعتاد ملوك الوندال أن يقيموا حفلاتهم فيها ، مع أمراء قومهم . ويطلق الرومان على قاعة الحفلات عادة في القصور الإمبراطورية اسم « القاعة الدلقية » ، حيث توضع منضدة ذات ثلاثة أرجل ، وعليها يوضع السقاة الإمبراطوريون *Pincernae* الكؤوس ونظراً لاستعمال هذا التقليد لأول مرة في مدينة دلفي اليونانية ، أضحي الرومان يطلقون كلمة « الدلقية » على هذه المنضدة ، واستعار البيزنطيون هذا المصطلح وأطلقوه على قاعة العشاء في القصور الإمبراطورية ، فسموها : الغرفة الدلقية . كانت هذه القاعة معدة بالأواني والطعام والشراب ، استعداداً لحفلات جليمر ، فألت هذه الاستعدادات جميعها إلى بلزاريوس ورجاله ، وقام خدم جليمر بتقديم الطعام والشراب للمتصرين (٢) .

ورحب السكان بالفاتح ، وأبحر الأسطول الإمبراطوري إلى بحيرة تونس ؛ وفي تلك الأثناء بعث المغاربة في نوميديا بسفرائهم إلى بلزاريوس مظهرين خضوعهم وإذعانهم للفاتح ؛ وكان من عادة زعماء المغاربة أن يمنحهم أباطرة الرومان شارات الأمرة على أقوامهم ، وهذه الشارات عبارة عن : عكاز مصفح بالفضة وقلنسوة فضية على شكل تاج ، ومعطف أبيض ، وتيونك *Tunias* أي رداء روماني ، وحذاء منخفض . أرسل بلزاريوس بهذه الشارات ، دليلاً على عودة الأمور إلى ما كانت عليه (٣) .

(١) Lot, Les Invasions, P. 143 ; Deanesly, PP. 83-4 ; Bury, II, P. 135.

Deanesly, P. 84.

Ibid.

Bur, II, PP. 13°-36y.

(٢)

(٣)

(٤)

وعلى أثر هذا النصر المبين ، استعاد الأساقفة الكاثوليك مراكزهم وكنائسهم ، وطهروا الكنائس من آثار الأريوسية ، وعلقوا فيها التحف والهدايا التي نذرها المؤمنون للكنيسة ، والتي كانت أخفيت خلال سيطرة الوندال ، وظلت مخبوءة طوال تلك الفترة ، ومن بينها الطاسات الجميلة المزخرفة ، والمشكاوات وغيرها ، أعيد كل شيء إلى حاله ، وهرب رجال الدين الأريوسيون وتفرقوا في شتى الجهات .

أما جليمر الأبى ، فقد كان لاجئاً في ذلك الوقت عند بعض القبائل المغربية ، التي ظلت على ولائها له ، وذلك في مدينة بولارجيا Bulla Regia في نوميديا ، وهي المعروفة حالياً باسم « حمام دراجي » ؛ خرج جليمر واستأنف كفاحه ، رغم انتصارات بلزاريوس ، فقطع الماء العذب عن قرطاجنة ، وحاصرها ، فهزمه بلزاريوس مرة أخرى في منتصف ديسمبر من نفس العام (٥٣٣) عند مدينة تريكاماروف Tricamarum — ومكانها الآن غير معروف ، وكانت تقع على بعد نحو ٢٠ ميلاً غربى قرطاجنة . حينئذ عاد جليمر إلى مخبأه مرة ثانية ولكن في تلال بابوا Pappua في مفاوز نوميديا عند أنصاره من المغاربة ، وعاش في هذا الملجأ في بؤس وجوع ، وقاسى من شدة البرد ، ولا سيما وكانت فرقة الهيروليين بقيادة زعيمهم الهيرولى فراس Pharas قد أحاطت بهذا الجبل وحاولت دون اتصاله خارج هذه المنطقة ، وأرسل القائد الهيرولى إليه رسالة ودية ينصحه فيها بالتسليم ، إذ لم يعد هناك جدوى في أية مقاومة ، فسلم (١) .

وفي تلك الأثناء كان بلزاريوس قد تقدم إلى هيپورجيوس واستولى عليها ، واحتاط على الموجود فيها من كنوز الوندال ؛ ثم أرسل جيشاً من قبله لفتح سردينيا وقورشيقة وجزر البليار ؛ وأخيراً استولى بلزاريوس على مدينة سوتا Ceuta (سبتة) في أقصى المغرب ، واستعاد كذلك جزر البليار وقورسقة وسردينيا .

(١) Gautier, PP. 309-10 ; Lot, La Fin, PP. 289-90 ; Bury, PP. 135-36.

وبتسليم جليمر ملك الوندال في مطلع عام ٥٣٤م ، تكون دولة الوندال قد زالت نهائياً^(١). واقتنع الأمبراطور يوستانيوس بهذه النتيجة الطيبة ، فإن الوندال ذهب ريمهم ، ولم يعد هناك أى خوف من ناحيتهم ، واستدعى قائده المظفر واحتفل بالنصر في القسطنطينية ، حيث سار الملك جليمر الوندالي الأسير ، في موكب النصر ، واتخذ يوستانيوس لقباً جديداً على أثر هذا النصر وهو « الوندالي والأفريقي أى قاهر الوندال وفاتح أفريقية & Africanus Vandalicus » ، وأعيدت الحكومة الرومانية بكامل مظاهرها وتقاليدها في أفريقية^(٢).

ومن بين المغنم التي استولى عليها بلزاريوس وعاد بها إلى القسطنطينية ، الأواني الذهبية التي كان القيصر تيتوس Titus Caesar قد استولى عليها يهوذا Judaea من قبل ؛ وعومل جليمر ملك الوندال بالرحمة والتقدير فأعطاه الأمبراطور يوستانيوس ضيعة كبيرة في منطقة فريجيا بأسيا الصغرى ، حيث ظل يعيش جليمر وأسرته في هدوء ونعمة^(٣). وقد عثر في عام ١٨٧٥م بالقرب من مدينة Feltre على وعاء فضي مكتوب عليه : جليمر ملك الوندال والآلان Geilamir Vandalorum et Alanorum Rex ولا بد وأن هذا الوعاء كان من بين كنوزه التي استولى عليها بلزاريوس ، ويقول المؤرخ ممسن Mommsen إنه ربما كان بلزاريوس أهداه إلى ضابط هيرولي ، ويحتمل أن هذا الضابط هو الذي نقله معه إلى إيطاليا^(٤).

وكان من بين الأسرى عدد كبير من الجنود الوندال ، فسكون منهم الأمبراطور يوستانيوس خمس فرق « نسبت إلى الأمبراطور نفسه » وندال

Villari, P. 199 ; Bury, II, PP. 137-138 ; Gautier, P. 310.

(١)

Oman, P 79 ; Lot, La Fin P. 290; Bury, II, PP. 138-39. Halphen, (٢)
L., Les Barbares, P. 96 ; Moss, PP. 97-100.

Bury, II, P. 179.

(٣)

Bury, II, P. 139.

(٤)

يوستانيوس : 'Vandali Justiniani' . ووضعها عندا لحدود الفارسية ، كما دخل عدد من الوندال الأسرى في خدمة بلزار يوس (١) .

لم تكن هناك من مصاعب في فرض السيادة الرومانية من جديد على أفريقية الرومانية ، سوى ما صدر من مقاومات عنيفة وثورات عارمة ، منها الوطنيون المغاربة ضد السيادة البيزنطية ، مما حمل بلزار يوس على العودة من صقلية إلى أفريقية لقمع الثورات . وتكررت الثورات ضد سولومون Solomon أول حاكم بيزنطي عقب زوال الوندال ، وكذلك ضد حلفائه من بعده ، فمثلاً كان على سولومون ، أن يطارد أنتالاس Antalas زعيم قبيلة فركس Frexi البربرية وحلفاءها من القبائل الآخرين بزعامة كاتسنا إذ كان هذا الحلف يهدد ولاية بيزا كينا ، كذلك كان الزعيم لابداس Labdas ملك بربر جبل أوراس يهدد نوميديا ويخرب فيها ولذلك عاش سكان نوميديا في رعب وقلق من البربر المقيمين بجبال أوراس ، أما بربر موريتانيا ويشغلون أغلب مساحتها ، فكان يتزعمهم إثنان في ذلك الوقت هما : ماسونا Masuna وماستييجاس ثم إن ولاية طرابلس كانت معرضة دائماً لغزوات قبائل لواته البربرية (٢) .

وفشل سولومون في القضاء على أخطار الثورات الوطنية التي شنها البربر ، ضد كل سيادة أجنبية ، وكان الجيش الروماني ضعيفاً في أفريقية ، وفشل حكام الرومان في تهدئة البربر ولم تجدد الحصون التي أقامها الرومان بعد الوندال ، في الحيلولة دون غزوات البربر ، وإن حاولت دون ثورات السكان في المدن ، بل لم يحل دون انهيار الحكومة الرومانية في تلك الفترة سوى تفكك القبائل البربرية الوطنية وعدم الوحدة بها ، بسبب الأحقاد والمنافسات ، ولذا استغل الرومان هذا الانقسام ، فاستعانوا بالبعض ضد البعض الآخر .

Ibid.

Bury, II, P. 141.

(١)

(٢)

الخلاصة يمكن القول : إن الظاهرة المميزة لتاريخ شمالى أفريقية منذ طرد الوندال ٥٣٤م حتى الفتح العربي في منتصف القرن السابع الميلادي ، هو الحروب المتصلة ضد البربر ، تخللتها فترات هدوء قصيرة ، ولم تنجح الحكومة الرومانية البتة في يوم ما في فرض سيادتها الكاملة وسيطرتها التامة على الوطنيين (١) .

أما أسباب سقوط دولة الوندال فتلخص في عدة عوامل ، منها : أن عدد الوندال كان قليلاً بالقياس إلى عدد رعاياهم من المستوطنين الرومان والبربر الوطنيين حقيقة زاد عددهم إلى ثلاثة أمثال العدد الأصلي الذي غزا أفريقية ، ومع ذلك ظلوا أقلية صغيرة غريبة من الناحية الجنسية . ورغم أن الوندال أقاموا في أفريقية نحو قرن من الزمان ، وعاشوا بين المستوطنين الرومان أو الرومان الأفريقيين Romano-Africano ، ولا سيما في الولاية القنصلية وبيزا كينا ، واستعماروا الكثير من نظم الإدارة الرومانية ، وإلى حد ما أبقوا على اللغة اللاتينية ، بل أن منهم من شجع الآداب اللاتينية ، رغم كل ذلك فإن الوندال ظلوا منفصلين عن أهل الولايات الذين لم يصفو لهم النية ، ولم يندمجوا فيهم ، حقيقة أن دركونتيوس Dracontius (٢) الشاعر والخطيب المعاصر للملك الوندالي جنتاموند (٤٨٤ — ٤٩٦م) يقول بأن أطفال الوندال والأفريقيين كانوا يترددون معاً على مدرسته ، وكان يمكن أن يتم التقارب والامتزاج على طول الزمن ، لكن لم يكن كافياً لتحقيق الامتزاج بين العنصرين .

هذا ولم يتعد حكم الوندال الفعلي عن المنطقة المحيطة بقرطاجنة وهيبيو رجيوس ، أى ولاية أفريقية — وهى تونس الحالية تقريباً ، أما طرابلس ونوميديا وموريتانيا فكانت فعلاً في يد الأمراء والبربر وإن عدت هذه الأجزاء ضمن مملكة الوندال

Ibid, PP. 142-43.

(١)

(٢) دراكونتيوس الشاعر الأفريقي ، أعظم الشعراء المشهورين في تلك الفترة الحاكمة في الأدب اللاتيني ، وربما كانت الشخصية الوحيدة التي برزت في بيت الوندالية .

ولا يعترفون إلا بالسيادة الإسمية للوندال ؛ ولم يكن التوسع ، في عرف الوندال ، هو تدعيم سيطرتهم واستقرارهم شرقاً وغرباً على طول الساحل ، وإنما كان مدلوله لديهم هو القرصنة البحرية ، وهناك الخلاف المذهبي العنيف ، فقد عرف الوندال بتعصبهم الشديد للأريوسية وهي هرطقة ، إن لم تكن كفرة في نظر الأرثوذكسي أو الكاثوايكي ، ولم يفعل الوندال ما فعله أشقاؤهم من الجرمان الآخرين مثل القوط الشرقيين أو الغربيين ، وتسامحوا مع رعاياهم الكاثوليك ، ولذا تعد الأريوسية سبباً جوهرياً في زوال ملك الدول الجرمانية التي دانت بها (١) .

ثم إن جزيريك ، ملك الوندال ، كان قد هدم جميع أسوار المدن ، باستثناء المدن التي أقام فيها الوندال تحصينات وندالية جديدة ، مثل قلعة سوتا المطلة على الزقاق ، وهي بورجيوس وقرطاجنة ، واعتقد جزيريك أن هذا يحول دون تمرد السكان ، ويحرم الجيوش الغازية من استخدام هذه التحصينات ، ولكن الأمر جاء على عكس ما تصور ملك الوندال ، إذ أن إزالة الأسوار وهدم الحصون ، يسهل مهمة الغازي أكثر من تعويقها ، والذي حدث فعلاً خلال تقدم بلزاريوس ، أنه لم يلق مقاومة تذكر (٢) . كذلك دل هذا التدمير الوندالي ، من ناحية أخرى ، على قصر نظر زعيم الوندال ، ولذا يمكن أن يقال إن منشيء دولة الوندال في شمالي أفريقية ، قد وضع بذور ضعفها وانهارها (٣) .

يضاف إلى ذلك ، تلك الحملات المتكررة من جانب روما وبيزنطة ، وكثرة المعارك التي خاضها الوندال ضد ثورات البربر الوطنية ، فهؤلاء لم يخضعوا لحاكم قط ، فقد دُوخوا الرومان من قبل ، ورغم إن جزيريك قمعهم مؤقتاً ، وذلك بتجنيدهم في جيشه ، كما فعل الرومان سابقاً ، فإن خلفاء جزيريك قد تعرضوا

(Bury, II, P. 12° ; Schmidt, P. 322)

Oman, P. 10 ; Hodgkin, PP. 523-24.

(١) راجع
(٢) راجع ما سبق .
(٣)

لثورات مستمرة من جانب البربر ، واشتبكوا معهم في حروب متقطعة ، ولسكنها ليست حاسمة ، ولا سيما ضد بربر جبل أوراس (١) . فمثلا حدث زمن هنريك (٤٧٧ — ٤٨٤ م) أن اكتسح البربر من سكان جبال أطلس ، المستوطنين الرومان والوندال على السواء ، ومات هنريك وهو يستعد لحربهم (٢) ، كذلك شغل تراساموند (٤٩٦ — ٥٢٣) في حرب طويلة ضد البربر ، مما حمله على مهادنة الكاثوليك ليتفرغ للبربر ، وفي زمنه أفنى البربر عدداً كبيراً من الوندال . والملاحظ أن طرق البربر في حربهم فضلاً عن أسلحتهم الطويلة واستخدام الجمال ، وإتقان حرب العصابات والاختفاء في الصحراء التي خبروا دروبها ومسالكها ، كل ذلك أنهك الوندال وأضعفهم ؛ ويقال أن خيول الوندال كانت تجفل من منظر الجمال وحركاتها (٣) . ولم يكن البيزنطيون ، الذين خلفوا الوندال في شمالي أفريقية بأحسن حالا من أسلافهم ، فيما يتعلق بمتاعب البربر وثوراتهم .

أما القول بأن مناخ أفريقية ، لم يكن ملائماً للوندال ، فهو وإن كان يختلف عن مناخ البقاع الباردة التي هبطوا منها ، إلى أنه ليس أساسياً ، إذ أن الوندال منذ دخولهم أسبانيا في عام ٤٠٩ م ثم أفريقية في عام ٤٢٩ م ، كانوا تعودوا على هذا المناخ والقفور ، ولكن ليس معنى هذا التقليل من أهمية هذا العامل الجغرافي ، فالواقع أن المائة عام التي قضتها الوندال في أفريقية ، قد غيرتهم ، فأمسوا أقل قدرة على الحرب ، وأقل رغبة فيها ، ولا سيما بعد أن انغمسوا في اللهو والترف والرخاء ، في ذلك الجو الأفريقي الدفيء ، حتى أنه منذ وفاة جزريك ، يمكن أن يقال أن روحهم الحربية قد ضعفت . بل إن من بين الوندال أنفسهم زمن جليمر (٥٣٠ — ٥٣٤) آخر ملوك الوندال ، من كان يتطلع إلى منقذ من الرومان ، ليقضى على الأحقاد والتنافس والانقسامات التي مزقت صفوف الوندال .

Basset, op. cit..

Oman, P. 11.

Deane.ly, P. 81.

(١)

(٢)

(٣)

وإذا سأل سائل ، عن الدور الذي أسهم به شمالى أفريقية في نقل المدنية الرومانية والتراث الروماني ، فإن هذا السهم كان كبيراً ، غير أنه تم قبل وصول الوندال إلى أفريقية بصفة أساسية (١) . حقيقة أبقى الوندال على كثير من مظاهر المدنية الرومانية ، سواء في الإدارة أم في إقامة المؤسسات والعمائر على النسق الروماني ، ولا سيما زمن ثراساموند ، إلا أن ذلك كان قليلاً ، ولم يضيف الوندال شيئاً جديداً . ويذكر للملك الوندالي ثراساموند (ت ٥٢٣ م) إن عهده اشتهر ببعض الهدوء ، وأنه كان يشجع الأدب ، وفي عهده وعهود خلفائه من بعده ، قام نشاط أدبي ملحوظ في أفريقية الوندالية ، فمثلاً برز الشاعر درا كوتتوس Dracontius زمن ثراساموند ويعد أعظم شعراء اللاتينية في تلك الفترة ، وتعنى الشاعر Florentius بمدح ثراساموند ، وكذلك الشاعر فيلكس Felix ؛ وكتب الشاعر لكسوريوس Luxorius في رثاء دوميرا Domira الطفلة إحدى قريبات الملك الوندالي هلدريك (٥٢٣ — ٥٣٠) (٢) . والملاحظ أن مثل هذا النشاط كان يقوى زمن هدوء العلاقات بين الوندال وبيزنطة ، كما كان الشأن زمن هلدريك الذي كان صديقاً لبيزنطة ، نظراً لصلة القرابة الدموية ، إذ كان جده فالنتيان الثالث ، وقامت علاقة ود وصداقة بينه وبين الأمبراطور يوستانيوس ، حتى حاول أن يجعل مملكته تابعة لبيزنطة ، فلما طرده جليمر ، تدخل يوستانيوس (٣)

والواقع ، أن الوندال لم يتشبعوا بالمدنية الرومانية ، ويعملوا على تقليدها ، كما فعل القوط الشرقيون والغربيون (٤) والفرنجة مثلاً ، ولم يصيبوا من الروح

(١) راجع ما سبق في القسم الأول من البحث .

(٢) Bury, P. 125 ; Schmidt, P. 322

(٣) راجع ما سبق .

(٤) انظر دولة القوط الغربيين للمؤلف .

الرومانية Romanitas . إلا بعض قشورها ، منذ غادروا مواطنهم في وديان الحجر
الفسيجة وشقوا طريقهم إلى أفريقية .

ورغم أن حكمهم امتد في أفريقية ما يقرب من قرن من الزمان ، منذ استيلائهم
على قرطاجنة في ٤٣٩م حتى استسلام جليمر للكونت بلزار يوس في مطلع
عام ٥٣٤م ، فإن الآثار التي خلفوها ، لم تعد أدوات زينة وأواني منزلية ، تدل
في زخرفتها على الطابع الجرمانى أو البربرى الذى عرف عند الشعوب الجرمانية
الأخرى . فمن الآثار الوندالية التى عثر عليها : بعض رؤوس الدبابيس والمشابك
والأبازيم والمجوهرات ؛ فعثر قرب مدينة هيبورجوس (بونا الحالية) فى أحد
قبور الوندال على بعض المجوهرات وأدوات الزينة ، وعثر فى قبر سيدة وندالية على
عقد جميل من العقيق والزجاج الأحمر والأخضر ؛ ووجد فى قبر رجل وندالى
مشبكان كبيران ، مما يستعمل لتثبيت الثوب على الكتف ، وكذلك وجدت
مجموعات أخرى من هذه الأدوات ، وعلى بعضها صور المحاربين ؛ وربما تلمس
أصول الزخرفة الوندالية ، ولا سيما فى الألوان التى استعملوها مثل اللون الأزرق
والأحمر والأخضر ، فى الفن الذى ساد فى جنوبى روسيا ، وهذه على أية حال
دون مثيلاتها من المجوهرات القوطية والميروفنجية (١) .

وربما كان أهم من هذا ، من حيث الأثر التاريخى للوندال ، هو أن فتح
الوندال لإفريقية ، وقدم لها ، لا يمكن تجاهله عند دراسة أوربا الجرمانية ، فإن
حركات الوندال دون غيرهم من حركات الشعوب الجرمانية ، كانت عاملاً هاماً
فى التطور الاقتصادى لأوربا ، لأن سيادة الوندال على البحر المتوسط وتحكم أسطولهم
فيه ، وقطع التجارة الرائجة بين الموانئ التجارية الشهيرة أمثال : بيزنطة وأزمير
وصيدا والأسكندرية ولبدة (Leptis) وقرطاجنة وأوستيا ومرسيليا ، أدى ذلك

إلى نقل أوربا من طور الاقتصاد المعتمد على نفوذ الأباطورية الرومانية بصفة أساسية إلى طور الاقتصاد القائم على الاكتفاء الذاتي يقدر المستطاع ، وذلك داخل للمالك الجرمانية التي قامت على أنقاض الأباطورية الرومانية (١) .

* * *

ومن العجيب أن الوندال اختفوا من التاريخ نهائياً ، إذ تفرق من بقى من شرادهم في أطراف الأباطورية الرومانية ، وعلى حدود فارس (٢) ، أما من بقى في أفريقية ، فقد صودرت أملاكه وأنزل إلى مرتبة الرقيق ، كما فعل الوندال أنفسهم من قبل ، مع سادة المستوطنين الرومان في أفريقية . وإذن ، فالوندال ، من أولئك البرابرة الذين لم يتركوا أثراً في التاريخ ، ومثلهم في ذلك مثل أشقائهم الجرمان من الهيروليين والروجيين Rugin ، والقوط الشرقيين والسويبي ، ولم توجد إلا آثار ضئيلة من بقايا اللغة الوندالية (٣) .

* * *

أما عن أحوال شمالي أفريقية بعد طرد الوندال ، فيمكن أن تلخص في الاضطراب المستمر من جانب البربر الوطنيين ومن جانب الحامية الرومانية نفسها . والمعروف أن البيزنطيين حكموا شمالي أفريقية ، على أثر طرد الوندال ٥٣٣/٥٣٤م إلى منتصف القرن السابع الميلادي ، عندما جاء الفتح العربي الاسلامي ، أي ما يربو على قرن من الزمان

الظاهرة الكبرى المميزة لتاريخ شمالي أفريقية ، خلال ذلك القرن ، هي الصراع الدائم ضد الوطنيين من البربر ، ولا عبرة لفترات الهدوء القصيرة الأجل ،

Deanesly, PP. 116 Sqq.

(١)

(٢) راجع ما سبق

(٣) Kartsen, PP. 219-220 ; Boissonnade, PP. 18-26.

(٣)

التي كانت تتخلل ذلك الصراع : بل إن خطر البربر الوطنيين بدأ فعلاً ولما يزال بلزار يوس في أفريقية ، وقبل أن تستقر أوضاع السيادة البيزنطية الجديدة ، أو تنظم قوة دفاعهم عن الولاية : وكما دوح البربر ، الوندال من قبل ، كذلك لم يكن البيزنطيون بأسعد حالاً من أسلافهم في حكم تلك البقاع (١) .

وخلال الفترة التي تلت زوال السيادة الوندالية مباشرة ، كان البربر يكونون ثلاث مجموعات رئيسية في مناحل شمالى أفريقية :

١ — في الشرق قبيلة لواته وأحلافها من القبائل البربرية الأخرى مثل هواة وأورينغة ونفراوة وأوربة . وهذه تنتشر في طرابلس وبرقة وجبل أوراس وماوالاه .

٢ — صنهاجة في الغرب ، وتنتشر فروعها داخل المغرب الأوسط والمغرب الأقصى . وتشمل كتامة وزواوا وزناتة وبنى فريدة وغماراوبرغواطة ومصمودة وجزولة ولطة ، ويلاحظ أن صنهاجة وفروعها هم المعروفون بالملثمين (٢) .

٣ — زناتة وتنتشر فروعها في منطقة ممتدة من طرابلس شرقاً إلى الغرب (٣) .

أى أن جميع الساحل الأفريقي كان مهدداً دائماً بهذه القبائل في أى جزء من أجزائه .

Basset, op. cit.

(١)

(٢) الاستقصاء ج ٢ ص ٣ .

Bury, P. 141 ;Basset op. cit.

(٣)

وظهر في تلك الفترة زعماء من البربر، أمثال يبداس *Yabdas* ويتزعم بربر جبل أوراس ، ويتزعم البربر في موريتانيا إثنان هما ماسيناس *Massinas* وماسونا *Masuna* ، وكذلك الزعيم أنتالاس *Antalas* في پيزا كينا — وهي ولاية أفريقية الرومانية سابقاً أي تونس الحالية تقريباً — وبجواره الزعيم كانسنا *Cutsina* (١).

لم يكف البربر عن مهاجمة الحاميات الرومانية ، الموزعة في مواقع متباعدة ، ومهاجمة سكان المدن من المستوطنين الرومان ، وربما كان بربر جبل أوراس من أخطر القبائل البربرية التي هددت المدن الساحلية .

وكان باستطاعة القوات البيزنطية أن تحمي الحدود الطويلة الممتدة ، ضد هجمات البربر ، ولا سيما وأن البربر يعتمدون على فرق الفرسان الخفيفة ، مع العلم أن البربر يتفوقون على الرومان بأعدادهم الكبيرة ، غير أنه يمكن التغلب على قلة عدد الرومان بالنسبة للبربر ، إذا أخلص جنود الحامية الرومانية في أداء واجباتهم ، وإذا كفوا عن الأحقاد والضغائن الفاشية بينهم ، وإذا نجح قادتهم في سياستهم ؛ ولكن هذا كله ، افتقر إليه البيزنطيون في شمال أفريقيا ، ولم يكن للسيادة البيزنطية أن تظل قرناً في شمال أفريقيا ، إلا لانقسام قبائل البربر أنفسهم وكثرة الصراع بينهم ، فهذا وحده هو الذي مزق وحدة البربر ، حتى كان الرومان يستعينون بفريق ضد آخر ، كما حدث في انتصار القائد الروماني تروجليتا *Troglita* على قبائل لواته في طرابلس الذين هاجموا الرومان بزعامه كاركسان *Carcasan* عام ٥٤٧ م فلم يتحقق النصر على لواته إلا بفضل مساعدة بربر حيل أوراسي (٢) .

Bury, P. 141.

(١)

Bury, PP. 147-48 ; Basset op. cit.

(٢)

يضاف إلى ذلك كثرة تمرد جنود الحامية الرومانية في شمال أفريقيا ، لتأخير روانبهم باستمرار ، وللخلاف المستحكم حول اقتسام الغنائم ، فضلاً عن وجود عدد كبير من الأريوسيين ، وهم الذي يكونون فرق المعاهدين ، التي تحارب بين صفوف الرومان ، أساء هذا الفريق ، سياسة التعصب الديني التي مارسها الرومان ضد الأريوسية ، إذا أعيدت الكنائس التي انتزعت من الكاثوليك زمن الوندال ، إلى ما كانت عليه ، وهناك عدد كبير من الرومان الذين تزوجوا من النساء الونداليات ، وحالوا استرداد الأملاك التي كانت لزوجاتهم أو آباؤهن السابقين زمن السيطرة الوندالية ، وصادرتها الحكومة الإمبراطورية وأعادتها إلى ما كانت عليه سابقاً ، مما أدى إلى وجود مشا كل معقدة لإثبات حق الملكية ، فضلاً عما تخلل ذلك من تزوير الوثائق وقيام قضايا لاحصر لها (١) .

ثم إن السياسة الإمبراطورية فشلت في إقرار السلام الدائم في شمال أفريقيا ، حقيقة هي نجحت في حماية الحدود ، وفي الاحتفاظ بالسيطرة الرومانية ، لكنها لم تنجح في إقامة سلام مستمر ، والدليل على ذلك كثرة الولاة الذين تعاقبوا الحكم في أفريقيا زمن الإمبراطور يوستانيوس نفسه ، وكثرة الشقاق الذي وقع بين هؤلاء القادة الولاة وبين جنودهم . وفشل هؤلاء الحكام في الضرب على أيدي البربر . وأول هؤلاء الولاة ، بعد بلزار يوس ، هو القائد سولومون الذي صحب بلزار يوس في الفتح وولى الحكم بعد رحيل بلزار يوس ، بلقب جديد هو قائد جيش أفريقيا ، اضطر إلى الهرب من أفريقيا إلى صقلية أمام غزوة البربر الكاسحة في عام ٥٣٦م وخلفه جرمانوس Germanus الذي ظل سنتين ، ثم أعيد سولومون (٥٣٩م) ، لكنه ذبح في معركة كليوم Clilium عام ٥٤٤م أمام قبيلة لواته وأحلافها ، وشجع هذا النصر قبائل البربر الأخرى فهاجمت الأملاك الرومانية ، حتى أن القوط الغربيين في أسبانيا ، أغرام فشل الرومان فأرسلوا جيوشهم عبر الزقاق

واستولوا على ميناء سوتة ؛ وكان خليفة سولومون في أفريقية سرجيوس Sergius
دوق طرابلس ، الذي كان السبب بسوء تديره وجبنه وقصر نظره ، في إثارة لواته
وغيرها ، ووقع سرجيوس في شقاق مع جنوده ، فعين الأمبراطور اريوباندوس
Areobandus قسماً له في السلطة ، ولما لم يتفقا ، أعفى سرجيوس وانفرد زميله
بالحكم (١) . ومع ذلك ظلت الأحوال مضطربة ، وفشل في إقرار النظام ، وخلفه
تروجليتا Troglita ، وهكذا لم يستقر الحكم الروماني في شمالي أفريقية في وقت
من الأوقات .

وبالإضافة إلى هذه الاضطرابات ، وتمرد الجنود ، وسوء الإدارة ، وقع طاعون
في مطلع حكم البيزنطيين في شمالي أفريقية ، بعد القضاء على دولة الوندال ، واستمر
من ٥٤٢ إلى ٥٤٣ م ، وقضى على أعداد كبيرة من سكان الأمبراطورية . ومن
بين ضحاياه ، عدد ضخم من الرومان في شمالي أفريقية (٢) .

وهذا كله عبيد الطريق للفتح العربي الإسلامي في منتصف القرن
السابع الميلادي .

ابراهيم علي طرغما

Ibid. P. 146.

(١)

(٢) راجع ما كتبه مؤنس في (فتح العرب للمغرب) ص ١١ - ٤٧ .

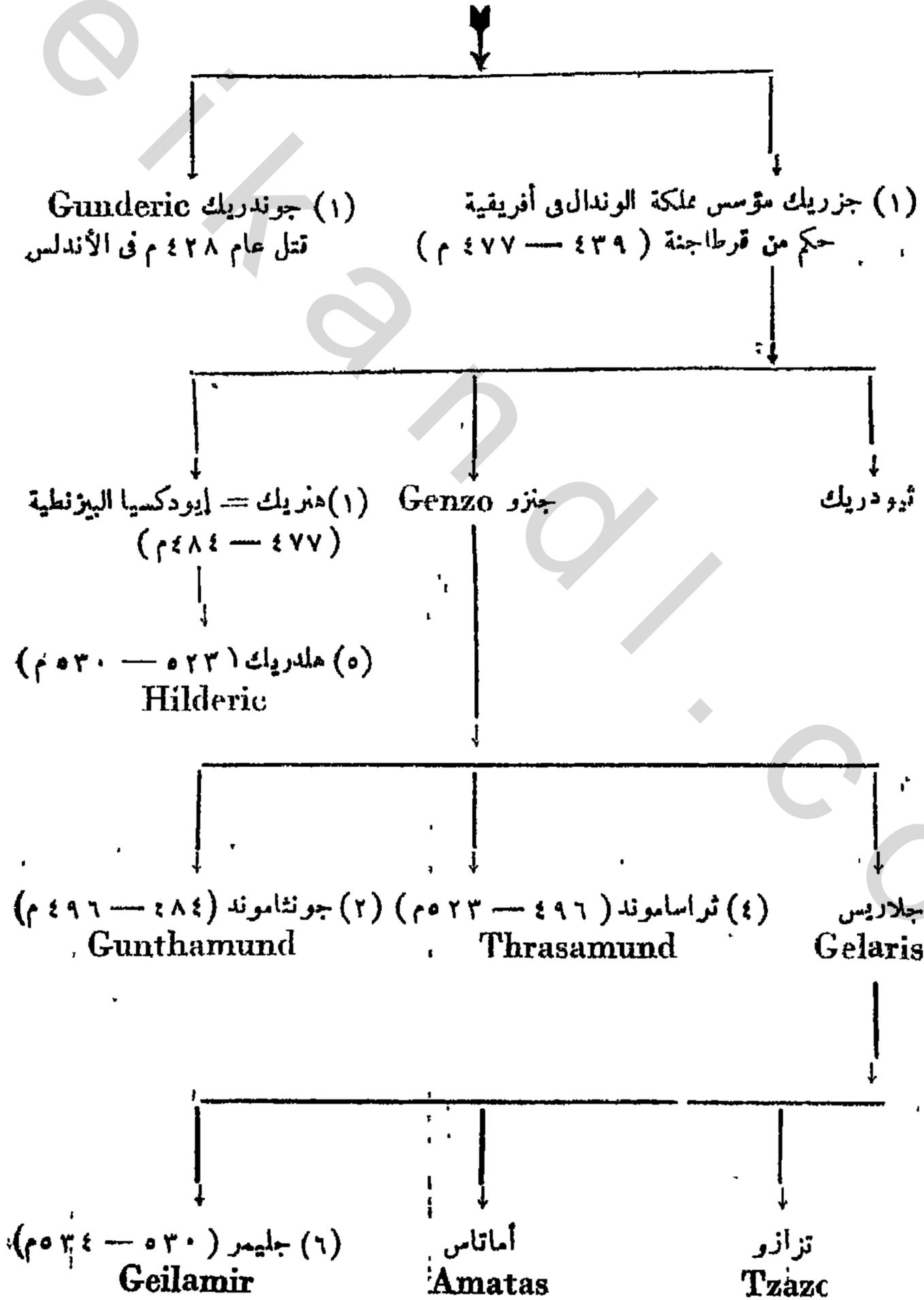
Bury, op. cit. P. 135 ;

(ملوك الوندال في أفريقيا)

٤٣٩ — ٥٣٤ م

جوديجسكلس Godigisclus

قتل عام ٤٠٦ م عند نهر الراين



الآباطرة الرومان المعاصرون لدولة الوندال

منذ قيامها في أفريقية ٤٢٩ إلى زوالها ٥٣٤ م

رقم مسلسل	اسم الأباطرة	مدة حكمه	ملاحظات
١	هونوريوس Honorius ابن ثيودوسيوس	٣٩٥-٤٢٣ م	
٢	جنا الموثق Joanne	٤٢٣-٤٢٥	قتله جيش الشرق
٣	فالتينيان الثالث Valentinian III	٤٢٥-٤٥٥	حكم بوصاية أمه بلاسيديا ابنة هونوريوس ، وقتله أنصار أيتيوس
٤	ماكسيموس Petr. Maximus	٤٥٥	مات بعد ثلاثة شهور
٥	أفيتوس Avitus	٤٥٥-٤٥٦	رشحه القوط الغربيون وعزله ريكمر صانع الآباطرة وتحكم في السلطة حتى أبريل ٤٥٧ م
٦	ماريويانوس Majorianus	٤٥٧-٤٦١	أعظم آباطرة تلك الفترة
٧	ساويرس Severus	٤٦١-٤٦٥	رشحه ريكمر ، وتحكم في السلطة بعد وفاته إلى ٤٦٧ م
٨	أنثيموس Anthemius	٤٦٧-٤٧٢	مرشح الشرق، عزله ريكمر وقتله
٩	أوليبريوس Olybrius	٤٧٢	رشحه ريكمر والوندال
١٠	جليكريوس Glycerius	٤٧٣-٤٧٤	رشحه البرجنديون طرده أورستيز
١١	يوليوس نيبوس J. Nepos	٤٧٤-٤٧٥	رشحته بيزنطة
١٢	روملوس أوغسطوس R. Augustus	٤٧٥-٤٧٦	ابن أورستيز ، طرده أدواكر وقتل أباه عام ٤٧٦ م ، وأقام حكومة في إيطاليا من ٤٧٦ - ٤٩٣ م .
١٣	زينو Zeno	٤٧٤-٤٩١	الآباطرة الشرق والغرب ، وافق على تبعية حكومة ادواكر للعرش البيزنطي . لكنه استعدي عليه القوط الشرقيين .
١٤	أناستاسيوس الأول Anastasius I	٤٩١-٥١٨	
١٥	جستين الأول Justin I	٥١٨-٥٢٧	
١٦	يوستانيوس Justinianus	٥٢٧-٥٦٥	قضى على دولة الوندال في أفريقية وأعاد شمال أفريقية إلى السيادة الرومانية البيزنطية . ٥٣٣/٥٣٤ م .